محمد عصمت
يحيى عزام

رواية

مركب عم جابر



ضياء
t.me/twinkling4

رواية



محمد عصمت - يحيى عزّام





العنـــــــوان: مركب عم جابر

الـــمـــؤلـــف: محمد عصمت - يحيى عزّام

إشراف عـــام: نجلاء محمد رضا قاسم



جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندى متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 20224517300+ - 201271919100+
emil: samanasher@yahoo.com - publishing@sama-publishing.com

إخـــراج داخـــلي : حمدى إدريس

محرر هذه النسخة: هتون & أشرف غالب.

الترقيم الدول
978-977-781-536-95
رقم الإيداع: 20754 / 2022
الطبعة الأولى: يناير 2023

تمّ تحرير هذه النسخة بواسطة:

تحرير وترتيب: هتون.

تجهيز: أشرف غالب.



إهـــــداء

إلى الصديق والأخ / باسم الخشن

الذي لم يكن هذا العمل ليرى النور لولا مجهوده

شكرًا من قلبينا

محمد عصمت - يحيى عزام.

إلى أستاذي / محمود عبد الخالق.

مدرس اللغة العربية

إليك يا من جعلتني أحب لساني العربي.

شكراً

يحيى عزام.

***

إلى زوجتي وأولادي.

المحرك الأساسي لحياتي، والدوافع الحقيقية للرحلة.

لولاكم... لانتهى الأمر منذ زمن بعيد.

شكرًا.

محمد عصمت

مقدمة

تتسبَّب قراءة الرعب بالرعب، لذلك يحبها البعض لكنّي بالتأكيد لست منهم، ولن أكون كذلك!

لا أحبه، لا أطيقه كم من مرة هممت بقراءة إحدى روايات الرعب، وما إن تمنى نفسك بقراءة عملٍ يناقِش فكرةً جديدةً؛ حتى تجدها تتمحور فقط حول جنٍّ عاشق أو قرين، يحاول سلبك جسدك للعبور إلى عالمنا.

أيُّ قرين تعيس ذا الذي يطمع في حياتك؟ هل أغوته صُحبتك البائسة؟ أم تُراه أعجب بفلاحك في الدنيا، فأراد أن يحيا حياة يتشدَّق فيه بالأموال على الفقراء والمحتاجين مستمتعًا بعلوِّ شأنه عنهم؟

ربما ظننت لوهلة أنني أخشى قراءة أدب الرعب، حسنا فقد أصبت من حقيقة الأمر جزءًا!



فأنا أخشى ما لا أفهم وأهرب مما لا أطيق، وأفزع مما لا أقوَ على مواجهته.

واستمرَّ الوضع هكذا، إلى أن اضطررت للذهاب ذات مرة إلى معرض الكتاب لمؤازرة أحد أصدقائي آنذاك، كلا لم يكن كاتب رعب، بل كان من قدّمني إلى صديقي العزيز الحاليّ، محمد عصمت.

وبعد مرور عامين كاملين ازدادت صداقتنا، لكنّ هيهات أن تضاهي ازدياد مُقتي وبُغضي للرعب.



(١)

مرَّ من الوقت شهر حتى انتهى الشتاء وحلَّ الربيع لتستبدل

شمسه الدافئةُ الصقيع، أيقظني صوت هاتفي معلناً أن أحدا المزعجين يريد أن يقض مضجعي، وبالطبع كان عصمت!

أتاني صوته عبر أثير الهاتِف يقول: «صباح الخير يا صديقي،

آمل ألّا أكون قد أزعجتك!».

قُلت محاولاً إخفاء ضيقي: «لا عليك، كنت سأستيقظ على كل حال».

قال مُتحمِّسًا: «حسنًا... لن أطيل عليك، هل لديك خطط لنهاية الأسبوع؟».

بالطبع لم يكن لديّ، فقد انتقلت حديثًا لشقتي الجديدة كي

أنعم ببعض الهدوء الذي يرافق حياة العزَّاب من الذكور ، وحده

الله - عزّ وجل - والإناث يعلمون ما تعانيه النساء إن قررت

إحداهن العيش بمفردها.



فكَّرت قليلًا قبل أن أقول له: «لا أعلم فجدولي المزدحم

يتجدد يوميًا، انتظر سألقي نظرة».

تركت هاتفي إلى جوار السرير وأسرعت بتجهيز فنجان

قهوتي الصباحيّ، مرت دقيقة واحدة حتى تناولت الهاتف بينما أقلب القهوة الخشنة داخل الكَنكة، قُلت مُصطنعًا: « الجُمعة؟ حمدًا لله! ليست لديّ أي مواعيد هامة في ذلك اليوم. لكن أخبرني... أين سنذهب؟..

قال دون أن يُفارِقه حماسه: قارب صيد اعتدت وأصدقائي

تمضية الوقت به في هذه الفترة من السنة، نصطاد ونغوص ونأكل مما اصطدناه، كما تعلم كرحلات الجامعة.

من أغلق كلانا الخط بعد أن أعلمني بمن سيصاحبنا، ثلاثة شبّان أصدقائه لم ألتق بهم من قبل، ويا ليتني ما فعلت أبدًا!

حددنا موعد الانطلاق، وكُنت في الموعِد، تقابلنا، وقسّمنا بعضنا بعضًا على سيارتين، ملأنا الطريق صخبًا، انطلقت السيارتين بسُرعة غير طبيعية، صوت الموسيقى كان عاليًا بشكلٍ غير طبيعي بلاي ليست تحتوي على مجموعةٍ عشوائيةٍ من الأغاني، تتنقَّل بين موسيقى (الترانس)، أغاني (المهرجانات) الشعبية الشهيرة موسيقى الجاز) الهادِئة، أغاني عمرو دياب القديمة، الكثير من أغاني محمد منير، لا بأس بقليلٍ من عمرو مصطفى وبعض محمد حماقي في الحقيقة لم يكُن أحد يُنصِت السمع أبدًا، وكأن الغرض من تلك الموسيقى لم يكن أن تُطرب آذاننا، وإنما كان أن تشتعل عروقنا وتمتلئ قلوبنا بالحماس.



لم يكُن مُهِمًا نوع الموسيقى التي تعمل، بل كان الأهم أننا سويًا، وأننا سُعداء، وأننا نعرف أين سنذهب، ولمن سنذهب.

ولأنني لم أكن أعرف إلا . عصمت، فقد كنت وعلاء - صديق طفولته الماجِن - في سيارته.

«تبدوان مثل (بينكي وبرين) بالمناسبة».

قلتها بينما أخفض صوت الموسيقى العالي الذي يتراقص على ألحانها علاء، لم يخفى على عصمت امتعاض صديقه وتأففه.

قال عصمت ضاحكًا : «بينكي وبرين؟ هل كنت تشاهد تلك الرسوم المتحركة أيضا؟».

تعالت ضحكاته قبل أن ينظُر لعلاء قائلًا: «آمل ألّا أكون بينكي، ما رأيك يا علاء؟».

قال علاء مُتعمِّدًا إغاظته: «رأيي أن صديقك الجديد لديه وجهة نظر جيدة، فأنت تشبه برين فعلًا!

اتسعت ابتسامة عصمت وهو يقول: «أيعني ذلك أنك غبي مثل بينكي؟».

قُلت مُتداركًا قبل أن يتطوَّر الأمر: «بل مرِح، مرِح وكثير المزاح والرقص ومُحِب للحياة، لا تورِّطني في مشكلة مع علاء يا عصمت».

ضحكنا قليلا قبل أن تدنو منّا السيارة الأخرى التي يحتلّها ابراهيم وحسن رفيقا الرحلة، أخرج علاء جسده بالكامِل من النافذة متناولًا سيجارة لا تدعو (لفَّتها) للتفاؤل أو حسن النيّة من حسن، الذي ترك بدوره مقود السيارة وبدأ يبادل علاء الأنفاس من تلك السيجارة المشؤومة.



***

وصل الجميع للمرسى، حيث مستقر قارب عم جابر، صيّاد من إحدى قرى دمياط يقتات على مثل تلك الرحلات في عرض البحر، فتارة يصطاد من الأسماك ما يكفي لأهل بيته، وما زاد عن حاجتهم باعه في سوق السمك الشهير، وتارة أخرى من رحلات شبابية كهذه.

يبدو عم جابر رجلًا تقليديًا في منتصف العمر، تلتمس منه البساطة في كُل شيء، بساطة المظهر وبساطة التفكير. متوسط الطول، تُزيِّن وجهه لحية خفيفة، مُنحنِ الظهر، حتى لا تكاد ترى رأسه من قبعة الصيادين التي تغطي تجاعيد جبهته، حاله كحال أغلب من يمتهِن تلك المهنة.

كُنا ستة رجال على قارِب مما يُذكّرني برواية طريفةٍ كُنت قد قرأتها منذ زمن بعد ترشيح من عصمت تُدعى ثلاثة رجال على قارب، كُنت أصغرهم سنًا، خلع الجميع ملابسهم وارتدوا (المايوهات)، وقفوا عُراة الصدور على القارِب تحت أشعة الشمس، يمتصون منها فيتامين (د) ، ويحصلون على صبغة الشمس التي سيتباهون بها طوال الصيف، لكن أكثرهم حركة ونشاطًا كان علاء، الذي وقف يتراقَص – عاري الصدر – على موسيقى مُزعجةٍ لمهرجانٍ شعبي، تتساوي درجة إزعاجه مع سوء صوت ذلك الذي جرؤ أحدهم وأعطاه رخصة للغناء، بينما يمسك بيسراه كأسا يشرب فيه ما يشرب.

جلس عصمت مع صديقيه الآخرين لتجهيز الشواء، كانوا قد أحضروا ثلاث كيلوجرامات من اللحم البتلو الصالِح للشواء كيلوجرام من الريَش الضاني ، وبضع أسياخ من الكُفتة، ناهيك عن السلطات المُختلفة ما بين سلطة خضراء ملوّنة يمتزج فيها لون الخيار الأخضر مع الطماطِم الحمراء والفلفل الأصفر، يتراقصون في وعاءٍ واسع مع البنجر البنفسجي، والبصل الأبيض، وبضع عصرات من الليمون، ولا مانِع من رشَّة ملح وبضع قطرات من الخل.



الحقيقة أن صُحبة عصمت مليئة بالأكل الشهي الدسِم والضحكات الصافية، ولهذا أحُب هذا الرجل.

بينما كُنت أراقِب عم جابر بناظري من أقصى القارب وأنا غارِق في التفكير ما كان ينبغي لي المجيء من الأساس فأنا لا أحب البحر.

بدا لي عم جابر متوترًا، أو ربما مترقبًا، أم تُراه قلقًا من شيءٍ ما؟ ومن سيلومه؟ فبالتأكيد لا يحب أحد عمله، خاصةً وإن كان عملك هو أن تساعد أمثال علاء على المجون!

حاولت أن أساعِده على الخروج من تلك الحالة النفسية السيئة، فقُلت مازحًا: ماذا عن اسم المركب يا عم جابر؟ ألا ترى أن كوكو اسمًا خليعًا بعض الشيء لا يليق برجلٍ وقورٍ مثلك؟».

نظر لي مُبتسمًا، إلا أن عينيه ظلتا مسكونتين بالقلق والارتباك، قبل أن يقول: «كوكو بنتي نور عيني وتاج راسي، والوحيدة التي يدق قلبي لها، تصوَّر أن الله قد رزقني بها في مثل هذا السن الكبير... إنها مُعجزة!».

بادلته الابتسام وأنا أقول بصدقٍ: «ليبارك لك الله فيها ويبارك لها فيك».

ابتسم وهزَّ رأسه دون أن يُعقِّب.

لم يمر الكثير حتى تصاعدت أدخنة الشواء، لكن لا يزال هناك بعض الوقت قبل أن يأذن لنا عصمت بتناول الطعام، وضع الجميع ما يُمسِكونه بأيديهم وقرَّروا أن يقفز أحدهم تلو الآخر في الماء الأزرق الصافي، الذي تناثرت حبَّات الماس التي صنعها انعكاس ضوء الشمس على سفحه هنا وهناك.



كان الماء مُنعِشًا، أفاقت العقول ونشطت الأجساد بفضل تلك السباحة اللطيفة، ظللنا في الماء حتى شعرنا بالإجهاد، وقبل أن نستسلِم له ، نادانا عصمت من فوق سطح المركب وهو يلوك قطعة من اللحم مُعلنًا أن: «الأكل جاهز يا شباب!».

صعدنا إلى متن المركِب سريعًا، فقد أنهكنا الماء وجعلنا نتضوَّر جوعًا، صعدنا وبدأنا في تناوُل الطعام وسط ضحكات هنا ومزحات هناك.

أصابتنا تُخمة ما بعد الطعام بالثِقَل والكسل، جلسوا يتبادلون الذكريات وجلست أفكِّر في حلقة جديدة من سلسلتي المُفضَّلة (قصة مش مُهِم تسمعها).

امتدَّت صداقتهم منذ أمد بعيد، منذ أن تفتَّحت أعيُنهم على الدنيا تقريبًا، تبادلوا الذكريات والمواقِف المُضحِكة كديدن الأصدقاء، كان علاء هو أكثرهم نشاطًا، وكان هذا طبيعيًا بالنسبة لشخصٍ كثير الحركة مثله، وقف بعد قليل مُعلِنًا أنه سينزل ليعوم قليلًا قبل أن تغرُب الشمس ويحل الظلام.

هبطوا إلى الماء مرَّة أخرى، بينما اكتفيت بأن دلّيت ساقي من القارب كيلا ينسى جسدي أننا في نزهةٍ شبابيةٍ مرحةٍ في وسط البحر.

سأله أحدهم ساخرًا بغرض استفزازي: «ما بال صديقك يا عصمت؟ أيخشى الماء؟».

فأجابه ضاحكًا : «لا أعلم! ربما قرأ قصة مرعبة عن الندّاهة، أو عن عرين الشيطان المُختبئ وسط الشعاب المرجانية».

سخر الجمع مني إلّا عم جابر، الذي تقدّم باتجاهي قائلًا: بالمُناسبة... هل سمعت عن عرين الشيطان الموجود في عرض البحر من قبل؟».



نظرت له قليلًا في صمتٍ، قبل أن أقول: «أجل، مرة. عندما كنت في الرابعة، أراد أحد أقربائي إثارة خوفي أثناء زياراتنا الصيفية، لا أتذكَّر الأمر تمامًا . لكن على الأرجح، فكل هذا محض هراء يُراد به تخويف الأطفال كي لا يبتعدوا عن أنظار ذويهم».

تبسم وهو يُشيح بنظره نحو أبطال السباحة، قبل أن يُطلِق زفيرًا أثقلته هموم الدنيا، وهو يقول بصوتٍ منخفضٍ: «أنت مُحق، فالبحر يُحب ابتلاع الأطفال بالفعل.

رمقته مُتعجبًا، لكنني لم أُعقِّب على ما قال، ويبدو أنه لم يكُن في مزاجٍ رائقٍ لاستكمال تلك المُناقشة، استدار مُبتعدًا، قبل أن يغلِبهم الثِقل وتهزمهم التُخمة ويصعدون واحدًا تلو الآخر لينالوا قسطًا من الراحة.

***

تجمع الشباب، وظل كل منهم يقص جزءً من ذكريات طفولتهم تحت أشعة الشمس شارفت على الغروب بالفعل... لم يخلُ الحديث من تباهي أصدقاء علاء بمغامراته ومجونه، نظرت لعصمت في ضجرٍ، حتى انتبه أخيرًا، وحاول تغيير مسار الحوار وهو يلوك نصف خيارة، حاول التظاهُر بالغموض وهو يسألنا « هل سمعتم من قبل عن عرين الشيطان؟».

أجبته: «بالطبع، إذا وجد هذا الشيطان؛ فلابد لعلاء أن يكون أول زبائنه».

انفجر عصمت ضاحكًا حتى كادت رئتيه تقفزان من صدره. وما كان من حسن - صديقه المقرّب - إلّا أن طلب من عصمت أن يستكمِل حديثه عن عرين الشيطان.

تماسَك عصمت، مسح أثر الضحك عن وجهه وبدأ بالحديث: انتقل جدي إلى هنا منذ عقود طويلة، واعتاد دومًا الذهاب للبحر كلما سنحت له الفرصة، فقد كان سباحًا ماهرًا لدرجة لا تتخيلوها، ذات مرة ... نزل فيها إلى أقصى عمق استطاعت رئتاه أن تتحملاه، وهناك وجد كهفًا محاطًا بالطحالب والأعشاب البحرية الطويلة الشائكة،



ويخرج منه تيار ماء ساخن على عكس برودة البحر، شعر بالدهشة، فما كان يشعُر به يُنافي قواعِد العقل والمنطِق تمامًا، لكن فضوله كان أقوى منه، حاول أن يقاوِمه، لكنه لم يستطِع، لذلك حاول الاقتراب منه ببطءٍ في محاولةٍ لاكتشاف أي شيء بالداخل، وما إن اقترب حتى رأى.....

صمت فقلت بجزعٍ خالطه الترقب: «ماذا رأى؟».

لم أُكمِل سؤالي، وجدت نفسي فجأة بين أذرعتهم، حملوني وقفزوا بيّ في الماء وضحكاتهم تتعالى كالمجانين، الموت لكم جميعًا - عداك أنت يا صديقي لأنك غالبًا ستقرأ الكتاب، كما أنك أضخَم مني ولا أريد المُخاطرة بضلوع قفصي الصدري – كُنت أكره هذا النوع من المزاح، تملَّصت من بين أيديهم وصعدت إلى مؤخرة القارب، جلست بينما تدلّى نصفي في الماء بعدما هربت من أذرعهم التي التفت حولي كأذرع الأخطبوط، ورغم شعوري بالضيق العارِم الذي كان يُطبِق على صدري، إلا أنني اصطنعت الضحك كي لا أفسد اليوم على الجميع.

مرت دقائق حتى عاد الجميع إلى القارب - عدا علاء مرَّة أخرى - الذي ظل يتمايل مع ظل القارب فوق الأمواج الهادئة وأتبع ذلك بقفزة كالدولفين، قفزة اختفى بعدها لثوانٍ .

سألتهم مُتعجِّبًا: «من أين له بتلك الطاقة!».

أخبرني حسن بأن تلك طبيعته، وأنهم لطالما قالوا إنه يمتلك ثلاث رئات أو ربما حتى أربع لا يكل من البحر ولا يمل من الغوص. حتى أنه ذات مرة قام بالغوص وظل تحت الماء لمدة قاربت الخمس دقائق!

مرّت الدقائق، دون أن يخرُج علاء!



بدأ القلق يحتل صدور الجميع. عمّ التوتر المكان حتى قطعه صوت عم جابر وهو يقول ببرودٍ غير مسبوقٍ ودون اكتراث حقيقي: «ربما عَلِق ببعض الطحالب ولا يستطيع الخروج!».

ماذا؟ هل قال ذلك حقًا بمثل هذا البرود!

حسنا، كان هذا غريبًا!

بدأنا نشعُر بالخوف والفزع يتسلّلان إلى قلوبنا، نظرنا إلى بعضنا بعضًا، نُفكِّر هل نقفز إلى الماء لنبحث عنه؟ ونتساءل هل سيكون ذلك هو القرار الصحيح؟

همّ عصمت وحسن بالقفز، ولم يوقفهما سوى صوت شهيق علاء الذي شقَّ رأسه الماء، فأسرى في قلوبنا طمأنينة سرعان ما هربت فَزِعة حينما رأينا وجهه.

كان متجهمًا، مرتعدًا ،مرتجفًا، باكيًا، مبيِّض العينين كمن مسّه الجنِّ، صعد إلى القارِب في صمتٍ، رفض أن يتحدَّث إلى أي منا!

احتلّ أحد أركان القارِب وحيدًا، استقر فيه كالجنين في بطن أمه. بكي بشدةٍ، كان جسده يرتعِد كمن مسَّته الكهرباء، اقتربنا منه محاولين بث الطمأنينة بداخله، منتظرين أن يقول شيئًا، حاول حسن أن يربت على كتفه كي يهدئ من روعه، لكنه انتفض... كمن ضربته صاعقة من السماء.

في النهاية... هدأ قليلًا، وبدأ في الحديث بصوتٍ خافتٍ، وكأنه يُحدِّث نفسه، وقال أغرب شيء سمعته في حياتي: «غُصت كما أغوص كل مرة، أحب باطِن البحر كما أُحِب ظاهره، لكن هذه المرَّة كان الأمر مُختلفًا، شعرت بتيارٍ قوي يجذبني نحو اتجاه ما، كلا كلا... بل يكاد يجذب قلبي من صدري، لدرجة أني... لدرجة أني شعرت بقلبي يحاول الفرار من بين ضلوعي».



صمت قليلًا ، نظر للماء في فزعٍ، ابتلع ريقه بصعوبةٍ قبل أن يقول: «استمررت بالغوص بذاك الاتجاه حتى وصلت الصخور تتراص بانتظامٍ غريبٍ فوق بعضها بعضًا، تصارَع بداخلي شعورين، أولهما أنني يجِب أن أهرب من هنا على الفور! والآخر... أنني لابُد وأن ألقي نظرة لمعرفة ما يكمُن بين تلك الصخور، وللأسف... كان فضولي أقوى منه، ذهبت... ويا ليتني ما فعلت!».

صمت مرةً أخرى، ارتعد صوته بشدة وهو يقول بصوت كالبُكاء: « اقتربت من الصخور ورأيته، كان غريقًا، بدا لي أنه غرق منذ مدة ليست بالقصيرة، صار جلده كورقة زرقاء مهترئة حتى لا تكاد تتبين ملامِح وجهه، كاد قلبي يتوقَّف فزعًا، لكن كان لابُد لي وأن أقترِب، لسببٍ لا يعلمه إلا الله وحده، وعندما اقتربت...

لاحظت شيئًا مُهمًا، أنني أعرفه، كُنت أعرف ذلك الغريق......»

ازدادت رجفته حتى تعالى صوت اصطكاك أسنانه ببعضها بعضًا بينما تتسابق الدمعات من عينيه، ضمّه عصمت بذراعه كي يهدأ قليلًا، فتابع مُرتجفًا: «كُنت كمن ينظر في مرآة تحت الماء، كانت تلك... كانت تلك جثتي المُقيَّدة بالطحالب بين الصخور، حاولت قطع الطحالب، لكني سمعت صوتًا خشنًا بالكاد تبيّنته، صوتًا شيطانيًا يقول: إن حاولت تحريره ... ستحل محلّه...»

ساد الصمت للحظات، قبل أن ينفجر الجميع ضاحكين ضحكنا حتى دمعت أعيُننا من كثرة القهقهة، كنت أكثرهم رغبةً في أن أركل ذلك الغبي في مؤخرة رأسه، فقلت من بين ضحكاتي: يحاول منافستك يا عصمت!».

أجابني . عصمت ضاحكًا: «دعه يحاول كما يشاء».

أشار إلى رأسه الأصلع قائلًا: «لم يتساقط شعري دون سبب يا رجل!»

نظر لنا علاء وهو يقول بغضبٍ: «أتظنوني أمازحكم!».



قُلت بتهكمٍ ساخرٍ : «كلّا بالطبع يا رجل، نحن نصدقك، فدائمًا ما يرى المرء جثته مقيدة بالطحالب، كما أنه من المُعتاد أن يسمع أصواتًا تحت سفح الماء كلما همَّ بالغوص!».

كاد الجميع يسقطون أرضًا من كثرة الضحك، إلا اثنين منهم، كان علاء أحدهما.

استشاط غضبًا مُقسمًا علينا بأن ما قصّه علينا كان حقيقيًا، لم يُصدقه أحد، حتى أصرَّ عصمت على الغوص كي نتحقَّق مما راه.

لماذا يا عصمت؟ سامحك الله!

قفزنا جميعًا بعد تردُّد لم يطُل من علاء، تبعناه حتى وصلنا لتلك البقعة التي ذكرها سابقًا. حاولنا النظر بمساعدة شعاع الشمس التي اقتربت من الغروب، إلا أننا لم نرَ إلا بضع صخور محاطة بمزيـجٍ من الأعشاب والطحالب. اقترب علاء منها أمام أنظارنا وبدا عليه الغضب والفزع وكأنه على وشك أن يفقد صوابه، لا يوجد أي شيء مما رأي أو مما قصّه علينا، بينما تجاهلناه عائدين للسطح، فلسنا بمثل قدرته على الغوص لمدة طويلة مثله.

نظرت خلفي، وشعرت بالدهشة مما أرى، لكزت عصمت كي يرى ما أراه، نظر عصمت وتبعه البقية بعدما تعالت صيحات علاء التي كتمها الماء، كان عالقًا بالكامل بين الصخور، تلتف الطحالب حول أطرافه وعنقه وكأنها تقبض عليه، بينما يحاول المسكين الفرار يائسًا.

وقبل أن يفهم أحدنا ما حدث، وجدناه أسيرًا للطحالِب في نفس الوضع الذي قال أنه قد رآه، اتجهنا جميعا صوبه حتى صرخ برؤوسنا صوت أجش خشن بأن من سيقترب سيأخذ مكانه!



بالطبع تركناه، ليس خوفًا لا سمح الله، بل لأن صدورنا لم تعُد تقدر على تحمُّل قضاء المزيد من الوقت تحت الماء، نظرنا إلى بعضنا بعضًا وسط شهقاتنا المتتابعة فور وصولنا للسطح، تبادلنا نظرات امتزج فيها الفزع باللوم والعتاب بالحزن.

صَرَخ عصمت في عم جابر وهو يتسلَّق المركب، من بين أنفاسه المُتلاحِقة: «اذهب بنا بعيدًا، إلى أبعد مكان ممكن عن هذا المكان الملعون!».

وهنا تغيرت ملامح عم جابر، اتسعت عيناه وجحظتا، ظهرت عروقه، سقطت قبعته، وللمرّة الأولى ظهر عليه الفزع وهو يقول بصوتٍ مرتجفٍ: «ماذا فعلتم؟ لقد فتحتم على أنفسكم بوابة من بوابات الجحيم، ما كان لكم أن تتبعوه للأسفل، سيتحتم عليكم أن تغلقوا الباب الذي فتحتموه، سيتحتم عليكم أن تفعلوا ذلك وإلا فنحن هالكون».

صمت قليلًا قبل أن يُضيف بصوتٍ هامسٍ مليءٍ بالرُعب:

«وإلا فنحن جميعا هالكون!».

قالها بخفوتٍ وكأنه لا يُريد لأحدٍ أن يسمعه، لكن من سوء حظه أنني كُنت بجواره وأنني سمعته بوضوحٍ تامٍ، لكن خوفي ورعبي اللذان تملّكاني في ذلك الوقت جعلاني لا أفكّر في شيءٍ سوى في الهروب من هنا.

كانت تلك المرّة الأخيرة التي رأيت فيها علاء.

والمرَّة الأخيرة التي ركبت فيها مركب.

كُنت أظُن أن كُل شيء قد انتهى... لكنني كُنت غبيًا! لأن الأمر... قد بدأ للتو!



(٢)

قرَّرت - بمشورة أحد الأصدِقاء الذين أثِق بهم - أن أبتعد قليلًا عن أولئك الشباب، فذلك خير لي ولهم، بل أن عصمت قد أخبرني بنفسه أن الجميع قرَّروا الابتعاد عن بعضهم بعضًا قليلًا بعد تلك المأساة.

الشُرطة؟ بالطبع أبلغنا السلطات، ما حدث كان حادثًا، قضاء الله وقدره، غاص صديقنا في الماء، كديدنه دومًا، وعَلِق ببعض الصخور ولم ندري بمصيره، كُل ما نعرفه هو أنه لم يَظهر على سطح الماء مرَّة أخرى حاله كحال المئات ممن يغويهم البحر.

لم نذكر شيئا عن عم جابر، فما هو إلا ذلك المراكبي الذي لا حول له ولا قوة. وجاء تقرير الشرطة ليقول إنها حالة غرق من تلك الحالات المعتادة بذلك المكان.

ابتعد أحدنا عن الآخر كما قلت لك منذ ثوانٍ، ولم نترك وسيلة لتواصلنا مع بعضنا بعضًا إلا مواقع التواصل الاجتماعي، حيث يواسي بعضنا بعضاً بتفاعل أحزنني على منشورات النعي والنواح والعويل، إلا حسن!

الغريب... أننا غرقنا جميعًا وسط أمواج الحُزن والاكتئاب، لزمنا بيوتنا، وسيطر علينا الصمت، لم نُعد نخرُج أو ندخُل وكانت هذه هي سمتنا جميعًا... عدا واحدًا!

فقد كان حسن هو الوحيد الذي لم يبدُ حزينا على الإطلاق!



بل بدا في الحقيقة وكأنه تخطّى موت صديق طفولته بسرعةٍ يُحسَد عليها!

أتصدق أن نفس الشخص الذي سخرنا منه . الحادث عندما يوم قصَّ علينا عصمت كيف انهار من البكاء عندما مات كلبه العجوز!

أعرف أنه أحيانًا ما ينسى البشر حقوق الإنسان عندما يتعلَّق الأمر بالحيوانات، فقد تجد من يحزن على موت كلبًا أو قطًا، لكن شيئًا لا يهتز فيه عندما يموت أمامه شخص لا يعرفه.

لكن تصرُّف حسن كان غريباً، وغير منطقيًا وغير مفهومًا، حيث أنه كان ينشر كل يوم صورة جديدة تملأ فيها ابتسامته وجهه حتى تكاد تُلامِس أذنيه، ومن خلفه البحر، فتارة تجده في الإسكندرية، وتارة أمام شاطئ عجيبة الساحر بمطروح، أما هُنا فبمرسى علم، وتلك الصورة في شرم الشيخ .

كيف لذلك الشاب ذي الأربع عيون والظهر المنحني من كثرة الجلوس أمام الحاسوب، ذلك الذي لا يطيق الخروج من المنزل إلا لرمي القمامة بعد أن تهدده أمه بالطرد وتُخبره أنها لم تُنجِب رجالًا، أن يُسافِر كل هذه المسافات ليقضي وقتًا لم يكن يحبه أو حتى يطيقه من قبل!

هل هذه تبعات الصدمة، نظرًا لكونه تسبَّب بشكلٍ ما في موت صديق عمره أمام عينيه؟ لقد كان علاء هو صديقه المُقرَّب، لطالما تبادلا الأسرار والذكريات كُنت لتعتقِد أن يتصرَّف حسن بطريقةٍ مُغايرةٍ.

لكن عندما تُفكِّر في الأمر قليلًا... قد تجده منطقيًا من ناحيةٍ أو من أخرى.

فبعدما إتفقنا على الابتعاد عن بعضنا بعضًا كيلا يشُك أحدهم بنا أو يظُن أن هناك ما نُخفيه، فما يفعله حسن قد يكون طبيعيًا، على سبيل أنه يتعامَل مع الأمر بطريقةٍ



عاديةٍ، ويعيش حياته بشكلٍ طبيعي، وبالتالي... لن يشُك به أحدًا، أو حتى يشك أنه لا يُعاني من عُقدة ذنب من أي نوع.

وإما أنها وسيلة دفاعية يواجِه بها شعوره بالذنب كيلا يهزمه أو يتغلَّب عليه.

على أي حال، فتصرُّف حسن - على الرغم من أنه غريب وغير اعتيادي للغاية - إلا أنه مفهوم نوعًا ما.

على كلٍ فلا جديد يُذكر ولا قديم يُعاد، فكما تعلم لم يخلقنا الله بالطباع والنفوس ذاتها ما يهم أن يحاول كل منا تناسي ما حدث بمرور الوقت.

كانت الأمور تسير كما خُطِّط لها، لا يقترِب منا أحد من الآخر، ولا حتى نتقابَل أو نلتقي ولو حتى على سبيل الصُدفة، وكان من المفروض أن تظل الأمور هكذا حتى تهدأ الأمور وتستقِر القلوب.

لكن... دوام الحال من المحال!

***

استيقظت ذلك اليوم على صوت هاتفي المحمول، قلبته على وجهه محاولا أن أُخرِس المزعج الذي يحاول إيقاظي من نومٍ أشتاقه، وعندما أصِل إليه ، لا أملُّه، لكنه لم يكف عن الاتصال أبدًا، مرة تلو الأخرى، فتحت عينيّ وجلست على فراشي بعدما هَجَر النوم عينيّ، انقبض قلبي، مُكالمة في مثل هذا الميعاد لن تحمِل سوى خبر سيئًا، إما أن أحدهم قد مات، أو أنه قد نُقِل إلى المُستشفى في حالةٍ حرجةٍ.

أما عن المُتصِل... فقد أيقنت هويته دون أن أنظر إلى شاشة الهاتف، ومن عساه يكون إلا عصمت!

عصمت الذي جاء حاملًا أخبارًا لم تكُن مؤسفةً وحسب... بل كانت مفزعةً كذلك.



لقد اختفى حسن!

اختفى دون أن يترك أثرًا، وكأنه لم يكُن!

قامَت الشرطة بما يتحتَّم عليها فعله من تحقيقات، واستجوابات، وتتبع لأثر هاتفه المحمول، وتاريخ استخدامه المواقع التواصل الاجتماعي خلال الفترة الأخيرة، دون أن يتوصَّلوا إلى أي شيء!

اختفى الفتى كسراب يحسبه الظمآن ماءً... حتى إذا بلغه لم يجده شيئًا.

بعد انتهاء التحقيقات مع الشرطة عُدت إلى شقتي الصغيرة أجر خلفي ظلّي حتى اختفينا داخل المبنى. تفقدت هاتفي وأنا أصعد على السلم، ظهرت أمامي آخر صورة لحسن على أحد المواقع، انظر لنفسك يا رجل تبتسم كالأبله، وكأنك لا تدري أنك ستموت!

لا أدري حتى إن كانت تلك الابتسامة البلهاء حقيقية أم مزيَّفة، لكنّي أكاد أجزم أنها تخفي وراءها الكثير من الحزن، والشعور بالذنب، وتأنيب الضمير.

هل فعلت في نفسك شيئًا يا حسن؟

أغلقت الباب من خلفي، واتجهت للفراش، قُمت ببعض الأمور حتى انتهى بي الأمر. مستلقيًا على جانبي ومازلت أمعن النظر في صور الفتى، حتى لفت انتباهي شيء لم أكن قد لاحظته من قبل!

بدا حسن مُنتصِبًا بظهرٍ مشدودٍ، واضعًا يديه خلف خصره كالجنود في هذه الصور، على عكس هيئته في الحقيقة، فالفتى مدمن على استخدام الحاسوب كما ذكرت لك من قبل! غريب؟ أليس كذلك؟



هل يفعل ذلك لأنه يأخذ صورًا تذكاريةً؟ لا أظن ذلك! فصوره القديمة لا تدل أبدًا أنه يهتم بانتصاب قامته عند التصوير!

لكن ذلك لم يكُن الشيء الوحيد الغريب الموجود في الصور!

بل كان البحر الذي يحتل خلفيّة جميع صور حسن الأخيرة!

لم يكن الفتى من عشاق البحر كصديقه الماجن علاء أبدًا، بل كان يشبهني في الخوف من البحر، ودائمًا ما كان يصفه بالغدّار كشركات الاتصالات، التي تُبهرك بعروضها الساحرة حتى تتمكن من بطاقتك الائتمانية فلا تتركها إلا بعدما تسلُبك كل مالك! ربما كان ذلك تشبيهًا سيئًا منه ولكني فهمت مقصده، فالبحر يسحرك بجماله وهدوئه حتى يتملك منك فيحكم قبضته عليك!

تعمَّقت في الصور، كبَّرتها، وصغَّرتها بينما كُنت مشغولًا بصُنع فنجان من القهوة إلى أن لاحظت شيئًا أشد غرابة في الصورة الأخيرة!

بدا حسن وكأنه يضع بعض مُستحضرات التجميل في هذه الصورة! أخذت فنجاني وأسرعت لفتح حاسوبي لأضع الصور على تطبيق يحافظ على جودة الصور بعد تكبيرها. تجاهلت البريد الإليكتروني الذي يذكرني كالعادة بميعاد دفع فاتورة الانترنت قبل أن تقطع الشركة عني الاتصال، وفتحت الصور بالترتيب من الأقدم للأحدث.

وبالفعل... كنت محقًا! تزداد كمية مُستحضرات التجميل التي يضعها على وجهه من أقدم الصور لأحدثها!

حتى وجدت صورة يبدو أن العرق قد تمكَّن من مُستحضرات التجميل فيها، خفَّفها لتظهر كدمةً زرقاء تميل للون الأرجواني! ماذا كان يفعل ذلك الأحمق بنفسه؟ هل كان يضرب نفسه محاولًا التخلص من عقدة الذنب؟ هل حقا كان حسن من النوع الذي يقطع ذراعيه محاولًا التخلص من ألمه النفسي على حساب الألم الجسدي؟



لا أظنه ذلك الشخص الذي يظن أن إيذاء نفسه سيعيد عقارب الساعة للخلف مغيرًا الأحداث وكأن شيئًا لم يكُن.

بالإضافة إلى أن من يفعل ذلك لا يضرب نفسه في وجهه من الأساس! بل يستهدِف ذراعيه أو ساقيه، فما تفسير تلك الكدمات التي تزداد رقعتها اتساعًا باتساع رقعة مستحضرات التجميل التي تخفيها؟

أمعنت النظر في وجهه مجددًا، تبًا لتلك الابتسامة البلهاء التي لا تتناسب أبدًا مع نظرات عينيك من خلف النظارات!

بدا الفتى مرتعدًا كمن رأى شبحًا، أو ربما كانت نظرته تُطابِق نظراتنا عندما رأينا علاء يوم الحادث .

مهلًا ... إن جميع الصور على متن نفس القارِب! كيف لم ألحظه؟ أنا أعلم ذلك القارب جيدًا وكيف عساي أنساه! إنه قارب عم جابر! لماذا يبدو ذلك الحبل الأخضر الموجود في طرف القارب والذي يكاد يظهر في حافة الصورة مشدودًا بهذه الطريقة؟ لا أرى طرف الحبل الآخر في الصورة فالقارب على مسافة قريبة من الشاطئ ولا يوجد مرسي يظهر فيه الطرف الآخر من الحبل!

الهذا السبب ينتصب حسن بهذه الطريقة؟ ولهذا السبب يضع يداه خلف خصره؟ أكان مقيدًا طوال تلك المدة؟

ظلَّت العديد من الأسئلة تتقافز في رأسي كالفُشار في المقلاة حتى رأيت ما كتبه حسن أسفل الصورة الأخيرة ذاتها.

«الباب الذي يُفتح... لابد له من أن يُغلق مرة أخرى

#سعادة.



#امان

#على_البحر.

#دنيا_ثانية.

#ونس.

#نفس_المكان.

#يارب_الزمن_يُقف.

الباب الذي يُفتَح... لابُد له من أن يُغلَق مرة أخرى؟ تُشبه هذه الجُملة التي قالها عم جابِر يوم موت علاء!

توقفت أنفاسي للحظاتٍ عندما قرأت السطور، بينما اتسعت حدقتا عيناي ونفر الدم في عروقي عندما أعدت قراءة الوسوم.

وفورًا خطرت لي فكرة غريبة... ومُخيفة!

إذا جمَّعنا أول حرف من كُل وسم على حدةٍ، فستكوِّن تلك الحروف كلمةً مفهومةً.

(س ا ع د و ن ي)! ساعدوني!

لماذا ذهبت معك من البداية يا رجل، سامحك الله يا عصمت.



(٣)

بدأوا يختفون واحدًا تلو الآخر.

لا ينفك عددنا يتناقَص منذ ما حَدَث لعلاء.

لم أعُد أستيقظ من نومي إلا على اتصالات عصمت، الذي ما انفكَّ يُطلعني على آخر المستجدات من اختفاء أو موت أحد الأصدقاء، كان يقوم بدوره كصفحة الحوادث أو برنامج الـ(تنويه عن المفقودين الذي كان يُعرَض وقت الظهيرة في طفولتي على أكمل وجه.

كان الاختفاء هذه المرة من نصيب إبراهيم، إذ كان في قريتهم يعسُّ ليلا بين حقول الليمون ولم يُرى مرة أخرى، وكالعادة الأثيرة... قُيِّدت القضية ضد مجهول.

توالت الأيام بهدوء، كذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة، في البداية... مات علاء أمام أعيننا، ومن ثمَّ اختفى حسن وابراهيم وبالتأكيد سيحين دوري أو دور عصمت قريبًا، وبما أنه لم يتصل بي هذه الأيام فربما - والحمد لله قد جاء دوره أخيرًا!

ولكن لا... لا تكن بهذا السخف فما زلنا في بداية قصتنا.



على كُلٍ ، أدركت أنه ما زال على قيد الحياة عندما اتصل بي ليقض مضجعي كعادته لماذا لا يتصل هذا الرجل في أي وقت أكون مُستيقظًا فيه!

وضعت الهاتف على أذني لأتيقَّن أن هنالك مصيبة جديدة، كلا ليست أنه لم يختفِ بعد، ولكن عندما تسمَع تسارُع أنفاسه وتلعثمه في الكلام، تتيقن من أن قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه.

ولم يكن هذا أبدًا بالأمر اليسير على عصمت، فهو كاتب رعب اعتاد أن يثير مشاعر الخوف لدى قُرّائه، كما أنه من الصعب إخافة ذلك الضخم بقصص عن الأشباح والجن، كمثل تلك القصص الذي اعتاد تأليفها، فأن يكون مرتعدًا، مرتجفًا، تلتمس من صوته أنه سيلقى حتفه لا محالة. لم يكُن أمرًا سهلًا أبدا!

لم يترك لي مجالاً لأقاطعه، فقد كان متعجلًا كما لو أنه يتلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن شيء ما، وسمعت من بين كلماته صوت فتح وغلق الأدراج.

قال: «اسمعني جيدًا يا يحيى، ولا تُقاطعني... فالوقت ضيِّق للغاية!».

ثُم بدأ يتحدَّث... أخبرني أنه بمفرده في المنزل منذ يومين، بعد أن سافر والداه لحضور جنازة أحد الأقرباء في إحدى القرى المجاورة. استيقظ متأخرًا كعادته، وهمَّ ليأخذ حمامًا باردًا كحال كل يوم، وعندما انتهى... عاد لغرفته ليجدها مقلوبة رأسًا على عقبٍ! وكأن دولاب الملابس تقيَّأ كل ما بداخله.

وفي حال كان هذا غريبًا، فهو على وشك أن يُصبِح أكثر غرابةً، خصوصًا عندما تعلَم أن جميع مداخِل ومخارِج المنزل كانت مُحكَمة الإغلاق، ومن المُستحيل تمامًا أن يكون أحدهم قد دخل أو خرج من المنزل دون أن يشعُر به.



حاول عصمت منطَقة الأمر... فربما لم يكن الدولاب مستقرًا على الأرض؟ فقد اعتاد عصمت أن يضع بعض الكُتب تحت الدولاب والطاولات، والكراسي كي يجعلها مُستقرة على الأرض.

أعاد ترتيب ملابسه، وانتهى به الأمر بوضع كتاب تحت الدولاب، وخرج ليستلقي على الأريكة أمام التلفاز.

أجرى بعض الاتصالات ليطمئن على والديه، ثم وضع هاتفه على الطاولة الصغيرة أمام التلفاز في وسط الصالة وواصل مشاهدة بعض حلقات مُسلسله المُفضَّل على (Netflix) إلى أن غلبه النعاس حتى صباح اليوم التالي.

أمسك بهاتفه عندما استيقظ كعادته، انتبه إلى أن الساعة كانت قد تخطَّت الثامِنة صباحًا، قرَّر أن يستكمِل نومه، فهو لم يكُن من هؤلاء الذين يستيقظون في الصباح الباكِر أبدًا، اعتدل وتثاءب وهو يستعِد للقيام في رحلةٍ قصيرةٍ نحو فراشه، وعلى سبيل العادة... نَظَر إلى شريط الإشعارات ليجد أن رقمًا غريبًا قد أرسل له صورةً متبوعةً بسؤالٍ.

«ما رأيك بهذه؟»

كانت تلك صورته... صورته وهو مُستغرِق في النوم داخِل منزله!

التقطها الشخص الذي أرسلها له من داخِل منزله... من قلب بيته!

حاول الاتصال بالرقم لكنه كان مغلقًا، بحث عنه في تطبيقات الاتصال فلم يجده مسجلًا من الأساس. هل يناوشه أحد أصدقائه الأحياء - أم أن أحد جيرانه قد التقط هذه الصورة عبر شباك الصالة؟ أو ربما هي صورة قديمة له وهو يرتدي نفس الملابس حيث أنه قد اعتاد النوم على الأريكة كعادة كل الرجال؟



وحاول أن يُمنطِق الأمور مرَّة أخرى كعادته، ولكنه سُرعان ما توصل إلى نتيجةٍ واحدةٍ ، أنه بحاجة لتناول الفطور!

وبعد الظهيرة... كان قد قضى بضع ساعات في شرفة المنزل، حيث تناول فطوره، وشرب قهوته، وجلس يتأمل في اللا شيء، هاربًا من أحداث الليلة المنقضية قبل أن يهم لأخذ حمامه اليومي.

لكن هذه المرَّة... لم يكُن استحمامًا عاديًا أبدًا!

فما أن أغلق الباب... حتى ظنَّ أنه رأى ظل شخص من خلف الزجاج، شخص يقطع صالة بيته بخطواتٍ سريعةٍ للغاية، فتح الباب بعد أن ازداد ارتيابه، كيف له أن يُمنطِق هذا الأمر؟ كلا... هذا ليس منطقيا أبدًا.

لم يجِد أحدًا في المنزل بأكمله، بحث في كُل مكان، في النهاية، قرَّر أن يأخذ حمّامه دون إغلاق الباب، وضع هاتفه في منطقة لا يصلها الماء وبدأ يُسرِع في الاستحمام، إلى أن أتت اللحظة التي لم تطيق فيها عينيه الصابون؛ فأغمضهما رغمًا عنه. وفي تلك اللحظة، سمع صوت همسات قريبة من أذنه حتى أنه شعر بأنفاسٍ حارةٍ تكاد تكوي وجهه:

«مخطئٌ من يظن نفسه سيهرب من القدرة»

فتح عينيه بصعوبةٍ بالغةٍ ليتبيَّن مصدر الصوت، وبالطبع لم يكُن هناك أحد في الحمَّام سواه حاول الانتهاء بأسرع ما يُمكِن وأغلق الصنبور، لكن الماء لم يتوقف عن الهطول على رأسه!

لم يعد هنالك مجال للمنطق هنا، فقد أدرك أن شيئًا ما يحدث، فتح عينيه ليرى أنه لا يوجد أي شخص غيره هنا، حاول أن يُغلِق الصنبور مرة أخرى قبل أن يكتشِف أن ما يهطل على رأسه لم يكُن ماءً، بل كان صابونًا جعل عينيه تحترقان كالجمر المستعر.



أغلق عينيه قليلًا بحيث يستطيع أن يرى أي شيء يتحرَّك في نطاق رؤيته، وحاول الابتعاد عن الصابون .

بينما سكنت عقله فكرةً واحدة، مثل شبح يسكُن المنزل الذي قُتِل به، سيرتدي ثيابه ويخرج من البيت بأقصى سرعة!

قطع حبل فكرته هذه صوت غلق باب الحمام بعنفٍ شديدٍ تزامن مع انقطاع الكهرباء، فما كان له إلا أن يتحسَّس هاتفه محاولًا استخدام الكشّاف، ولأن المصائب لا تأتي أبدًا فُرادى، فقد كانت بطاريته توشك على النفاد، فأبى هاتفه أن يستخدم ضوء الكشّاف.

كان الحمَّام مُظلِمًا للغاية لأنه لا يحتوي على أي نوافِذ بين جنباته، وأخبره صوت إغلاق قفل باب الحمّام أنه الشخص الذي فعل ذلك... معه في الحمَّام!

لقد أصبح عصمت حبيسًا في الحمَّام مع مُطارده!

أضاء شاشة هاتفه، وفي ضوئها الخافِت بدأ يبحث في أركان الحمَّام الضيِّق، لطالما كان مُقتنعًا أن الأسوأ من أن تكون وحدك في الظلام... هو ألا تكون وحدك!

وها هو ذا... يعيش أسوأ كوابيسه!

وهنا اتخذ عصمت أسوأ قرار مُمكِن، قرَّر أن يتصل بي.

وبعد أن قصّ عليَّ ما حدث، وأثناء ما كان يطلُب مني أن آتي لمنزله على الفور، سمعت تلك الهمسات التي سبق أن ذكرها لي:

«مخطئ من يظن نفسه هاربًا من قدره»



سمعت صوت صرخة خشنة فرَّت من حلق عصمت حتى أن هاتفي سقط على الأرض.

أخذت مفتاحي، ونزلت الدرج قفزًا لأستقل أول سيارة أجرة لعلني ألحق صديقي الذي ظل يصرخ على الهاتف دون أن أتبين منه كلمة واحدة: «لن تُصدِّق... ما... أراه... أمام عينيّ الآن».

قالها بصوتٍ مرتعدٍ، كمن نام في العراء في ليلةٍ شتويةٍ ظلماء ينتهك فيها البرد خلايا جلده، وتتسارع أنفاسه محاولةً بيأس طمأنته أنه ربما... ربما سيكون كُل شيء على ما يرام، رغم أنها كانت تعلم تمام العلم أنه هالك لا محالة.

حاولت بشدةٍ أن أقاوِم فضولي، وألا أطرح عليه سؤالًا أعرف أن إجابته ستفزعني أكثر مما ستطمئنني، إلا أنني لم أنجح.

قبل أن تنطِق شفتيَّ بالسؤال، تابع قائلًا في دهشةٍ كالمسحور: «حوض الاستحمام... مملوء عن آخره... وهناك قارِب ورقي يطفو فوق الماء... يُشبه قاربًا نعرفه جيدًا... مركب يُشبِه... يُشبِه مركب عم جابر!».

صمت قليلًا قبل أن يقول بصوتٍ فزِعٍ: «يحيى!».

أجبته بتوتُّرٍ: «ما بك؟».

قال وهو يوشِك على الإنهيار : «لابُد لي وأن أخرُج من هنا».

لكن قبل أن أنطِق بكلمةٍ، سمع صوت باب شقته يُغلَق من الخارِج، وصوت خطوات بطيئة ثقيلة تقترِب من الحمَّام ببطءٍ وثقةٍ.

قال هامسًا: «لست وحدي!».



(٤)

تأكَّد كلانا أن عصمت لم يكن بمُفرده في المنزل على أي حال، وأنه على الأرجح سيلقى حتفه كما هو الحال مع صديقيه حسن، ثم إبراهيم، ومن قبلهما علاء.

أوشكت بطارية هاتفه على أن تذهب هي الأخرى إلى مستقرها فأدرك عصمت ذلك، كما أدركته تماما، قُلت له: «عصمت، لا تُنهي المُكالمة لو سمحت سآتي إليك حالًا».

قال وهو على وشك البُكاء: «يحيى... تعالى فورًا من فضلك لا أريد أن أواجهه بمُفردي».

حاولت طمأنته، فقُلت: «أنا قادِم إليك، لا تُنهي المُكالمة... اتفقنا؟ كلمني... قُص عليّ كُل ما يحدُث».

بالطبع لم أكُن مُهتمًا بمعرفة كُل ما يحدُث، بل كُنت أكثر اهتمامًا بأن يشعُر أنه ليس وحيدًا في هذا الموقِف، وبأن أطمئن قلبه بعض الشيء إلى أن أصِل له.

ولأن الرجل كان يبحث عمّن يُطمئنه، بدأ يتحدَّث على الفور، قال: «جسدي بأكمله يرتعِد، لا أستطيع السيطرة عليه على الإطلاق، أحاوِل أن أهدأ قليلًا كي أستطيع التفكير، اسمعني جيدًا... لقد انطلقت كالسهم المارِق من الحمَّام إلى غُرفة النوم،



فالبابين متواجهين كما تعلَم وأعتقِد... بل أنا شبه مُتأكِّد أن أيًا كان موجودًا معي في المنزل، فإنه لم يرني، خصوصًا وأن الظلام يُسيطِر على كُل شيء».

سألته بقليلٍ من الشك: هل أنت مُتأكِّد أن ما تفعله صحيح وآمِن؟».

ضحك بعصبيةٍ قبل أن يقول: «ما حدث قد حدث، وأنا الآن في الغُرفة. فكِّر معي....ماذا يجب أن أفعل الآن؟ فكِّر بسُرعة يا رجل! إنه يتحرَّك في الشقة ببطءٍ وثقةٍ وكأنه صاحبها! بل وكأنه....».

صمت قليلًا، أثار اللعين فضولي، فسألته: «وكأنه ماذا؟».

أجابني بصوتٍ خفيضٍ: « وكأنه يعرِف... يعرِف أنه في موقف قوّة وأنا في موقف ضعف! ».

حاولت طمأنته أكثر فقُلت: «لكن هذه ليست هي الحقيقة!».

قال وكأنه لم يسمَع ما قُلت: «حسنًا، بعد قليل من التفكير، لا يوجد أمامي سوى ثلاثة أماكِن فقط لا غير، إما تحت الفراش، أو خلف الباب، أو داخل دولاب الملابس! ».

ألم أقل لك؟ لا يصح استخدام العقل أثناء الفزع، كانت تلك هي الأماكن التي استقر لها ذهن عصمت كي يختبئ في أحدها من شخصٍ نعلم جميعًا أنه هنا كي يُخلِّد اسمه في سطرٍ في إحدى صفحات الوفيات.

قبل أن أنبس ببنت شفة، قال: «أما تحتُ الفراش فيكاد يكون من المستحيلات، نظرًا لحجمي».

كدت أبتسم رغم التوتُّر الذي أشعُر به وأنا أقول: « يسهل عليّ التصديق بأنني قد أرى عنقاءً أو ربما التقِط صورة شخصية مع غول أو حتى أن يحملك طائر الرُّخ إلى



أقصى الجبال، لكنني لن أصدّق أنك ستنجح في الاختباء تحت الفراش، لا، آسف، لا تحاول حتى إقناعي».

استمر في التفكير بصوتٍ عالٍ قائلًا: «وأما خلف الباب ففكرة سيئة للغاية، لأن ذلك المُقتحِم لو دخل إلى الغُرفة وأغلَق الباب من خلفه، فسينتهي الأمر تمامًا!».

ابتسم رغمًا عني، فكثرة مشاهدة أفلام المغامرة والتشويق والرُّعب التي اعتادت شاشاتنا عرضها في المناسبات والأعياد جعلتني أتوقَّع أن يقف عصمت - نصف عارٍ - ممسكًا بكتابٍ ثقيل منتظرًا دخول هذا الشخص المزعوم كي ينهال عليه ضربًا بأروع الكلمات الأدبية التي سيسقط أمامها القاتل مكتوف اللسان.

قال عصمت: «وأما داخل ا الدولاب، فكانت فكرة سهلة للغاية، ستخطُر في بال مُطاردي قبل أن تخطر في بالي أنا شخصيًا.

صمت قبل أن يُضيف بصوت امتزج فيه النصر بالسذاجة «وجدتها... داخِل الدولاب إذن».

وهكذا، توصَّل عصمت لهذا الاستنتاج، الدولاب هو الحل، وساعدة صوت الخطوات الثقيلة التي كانت تقترِب من الغُرفة على اتخاذ قراره، قبل أن يتراجع عن قراره في اللحظة الأخيرة.

قال عصمت هامسًا: وماذا بعد أن اختبئ؟ هناك قاتل في منزلي، واثِق تمام الثقة من وجودي داخل الغرفة، هل سأظل مختبئًا للأبد لا، لن أظل مُختبئًا، حتى لو كان هذا سيعني أن ألقى حتفي!

هَمَسَ بتلك الكلمات من بين اسنانه التي اصطحت ببعضها بعضا وهي تحاول مقاومة تسارع أنفاسه كالذي يستقل المصعد للطابق الخمسين.



تحلى بشجاعةٍ يُحسد عليها بكل تأكيد، وصمودٍ يستحق التقدير، كصمود بطارية هذا الهاتف الذي أبى إلا أن يرافق عصمت إلى نهايتهما التزمت الصمت مجددًا حيث لم يدع لي عصمت مجالًا للكلام، كما أنني خشيت أن يفزع سائق الأجرة.

قال: «من حُسن حظي أن المنزل واسِع، وصوت خطواته ثقيل بعض الشيء، ومن شأن هذا أن يجعلني أحدِّد مكانه في المنزل، لن أختبئ يا يحيى... حتى لو عنى هذا أن ألقى حتفي».

كانت هذه هي المرة الثانية التي يقول فيها هذه الجُملة، قُلت له: «لن تلقى حتفك يا عصمت... أنا قادِم إليك في الطريق... اصمد يا رجل! اصمد!».

فجأة... قال عصمت بصوتٍ عالٍ شابته السخرية والتحدي: «أما آن لك أن تخرج عن صمتك يا هذا! ألم تكتفي من لعب الغُميضة يا رجل، يعلم كلانا أنك هنا من أجلي».

وكأن عصمت انتظر أن يرد الدخيل عليه، ربما فاجأه الصمت؛ لكنه لم يفاجئني ليستطرد بعدها قائلًا: «حسنًا، على الأقل أعِد الكهرباء، أحتاج إلى الضوء، فأنا أرتعد خوفًا من الظلام كما ترى أعد الضوء وتعالَ، أنا بانتظارك في غُرفة النوم!».

ماذا تفعل يا عصمت؟ فيم تفكر وأنت تتفوّه بهذه الكلمات؟ هل ترغَب في استفزازه استفزاز شخص ربما تورط في قتل رجلين منذ أيام؟ وها أنت ذا... تحاوِل أن تمارس عليه حيلة عقلية كهذه!

قطع حبل أفكاري صوتُ ،عصمت، كان يوجِّه لي الكلام هذه المرة: «لقد عادت الكهرباء يا يحيى هل تعرِف معنى هذا؟

لم أكُن راضيًا عمَّا يفعله، كُنت أحبّذ أن ينتظرني ريثما أصِل إليه، لكنني سألته على أي حال: «ماذا يعني؟».



قال بسعادةٍ غير مُبرَّرة: «أنه يسمعني!».

وقبل أن أجيبه، أو حتى أن أنبس ببنت شفة، سمعت صوتًا يقول: «كيف حالك يا بني؟».

قالها بنبرةٍ خشنةٍ متهالكةٍ كأوتار عود عتيق، كان ذلك... كان ذلك صوت عم جابر!

شعرت بانفعال عصمت و دهشته وهو يقول: «عم جابر؟ كُنت مُتأكِّد... لكنني أبيت أن أصدِّق!».

قال عم جابر بنفس الهدوء: «يا ليتك صدَّقت يا ولدي! يا ليتك صدَّقت!».

سأله عصمت بفضول: لماذا يا عم جابر؟ لقد أحببناك من قلوبنا وكُنت شخصيًا أعتقِد أنك تبادلنا نفس المشاعِر!».

قال عم جابر بصدقٍ لا ريب فيه: «كُنت أحبكم يا ولدي! لكن هذا قدر... وأنت خير من يعرف الأقدار لا تتغيَّر!».

أجابه عصمت بغير تصديق: «قدر؟ أي قدر هذا الذي يجعلك تقتلنا واحدًا تلو الآخر؟ وها أنت ذا... تقِف أمامي لأن دوري قد حان!».

كُنت قادرًا على تمييز الحُزن في صوت عم جابر حتى عبر أثير الهاتِف وهو يقول: «حُكم القوي يا ولدي... أنا مُضطر...مُجبَر على ما أفعل سامحني يا عصمت».

كانت نبرة عم جابر هادئة بالفعل، ليس هدوء ذلك القاتل المتسلسل، بل هدوء الخانِع المستسلم لقدره.

شعرت بالفضول، أردت معرفة سبب كل هذا العناء، لماذا يفعل عم جابر - الرجل البسيط - كُل ما فعل؟ ومن يظُن نفسه كي يتوقع القدر أو يقرِّره مسبقًا!



وكأن عصمت قرأ أفكاري، طَرَح عليه ذات السؤال.

ساد الصمت للحظاتٍ قبل أن يُجيبه عم جابر: «حسنًا يا بني، من حقك أن تعلم لِمَ ستموت، ولكن لتعلَم أنك ميت لا محالة، فلا تحاولن فعل أي شيء غبي كيلا أجعل ميتتك مؤلمة».

توتَّر عصمت وهو يقول: «سأسمعك، لكن على الأقل امنحني الفُرصة للتفكير معك، ربما وجدنا حلًا آخرًا باستثناء موتي، فلا أجد نفسي ميالًا للموت اليوم... ربما في يومٍ آخرٍ!».

وقال عم جابر بسُرعةٍ ودون تردُّد أو تفكير: «هذا قدرك، والقدر مكتوب يا ولدي لا هروب من المكتوب».

تنهَّد وهو يقول: «هل تتذكَّر هذا المكان الذي أخذتكم إليه في آخر مرَّة تقابلنا فيها؟ هذا المكان مُحرَّم علينا، يهرب الجميع منه ويبتعِد الجميع عنه، يقولون عنه بيت إبليس، أو عرينُ الشيطان المكان الذي يسكنه الشيطان ذاته».

عرينُ الشيطان أوليست تلك الخدعة السخيفة التي قاموا بتنفيذها عليّ ذلك اليوم المشؤوم؟

صاح به عصمت بغضبٍ: لماذا ذهبت بنا إلى هناك إذن طالما تعرِف هذا الأمر؟».

أكمل عم جابر حديثه بنفاذ صبر قائلًا: «عندما كنتُ شابًا، كُنت مفتونًا بنفسي كالطاووس، مُتباهيًا بقُدرتي على السباحة والغوص في إحدى بقاع الغوص أمام زوجتي وابنتي حكيت لهما عن عرين الشيطان بقصد إخافتهما لا أكثر، ظننتها محض خرافات من الصيادين، ولأن القدر مكتوبًا ولا هروب منه، فقد سهوت عن ابنتي لثوانٍ قبل أن أراها تميل برأسها فوق سور المركب».



صمت لحظة، تهدَّج صوته حزنًا وهو يُضيف: «سقطت... سقطت وسط صرخات أمها، قفزت خلفها دونما تفكير، بحثتُ وبحثتُ حتى وجدتها في المكان ذاته، محاطة بالشعاب المرجانية والطحالب، تماما كما رأيتم صديقكم يومئذ، لكنني لم أتركها مثلما فعلتم ... إنها ابنتي! حاولت تحريرها... قبل أن يخترق ذاك الصوت رأسي، ويأمرني أن أذهب قبل أن يأخذ كلينا، فكَّرت في التوسل إليه، قلت في نفسي أن هذه ابنتي، وأنني سأفعل أي شيء كي أستعيدها، ردّ على أفكاري تلك بالموافقة، سيتركها... لكن بشرط».

صمت، سمعت صوت أنفاسه الثقيلة قبل أن يستكمِل بِحُزن: «سيتركها... مُقَابل أن أقدم له قربان بشري كل عام، في المكان ذاته، وافقت خوفًا على حياة ابنتي الذي بدأ لونها يتغيَّر بسبب نقص الهواء، وبمُجرَّد موافقتي... ابتعدت الطحالِب عنها وتركتها لي، حُرَّة طليقة، أخذت طفلتي غير مُصدِّق، وصعدنا إلى القارب قبل أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة، لكنني... لكنني لم أخبر زوجتي بشيءٍ».

سمعت صوت عصمت وقد ملأته الكراهية الممزوجة بالغضب: «إذن فقد أخذتنا لهذه البقعة مُتعمِّدًا! كنت تقدمنا قرابين كالخراف دون أن نعلم كيف تنام ليلًا وأنت تعلم مدى حقارتك يا رجل؟

رد عم جابر على غضبه باستسلام غريب وهل تظن أنني لم أفكِّر في الهرب؟ فما إن أخذت ابنتي من بين الطحالب حتى أقسمت بعدم الذهاب مرة أخرى مهما كلّفني الأمر، تناسيت ذلك اليوم وكأنه قابل للنسيان حتى مر عام كامِل».

صمت وسمعت كلماته تشق طريقها بصعوبةٍ من بين دموعه وهو يقول: «عام كامِل و (كوكو) تفقد عقلها الصغير أمام عينيّ، عام كامِل وهي تتحرك مُسَيَّرة باتجاه البحر عازمة على القفز، حينها فقط أدركت...».

صمت فسأله عصمت بصوت مُرتعِد: «ماذا أدركت؟».



قال عم جابر بخوفٍ صادقٍ: «أدركت أن الشيطان لا يسكُن الماء، الشيطان يسكُن قلوبنا، وأننا أضعف وأتفه من أن نواجهه وعدته أنني سأجلب له قربانًا، وبالفعل... اصطحبت أحد زبائني وألقيت به هناك، هدأت البنت... وأصبحت الأمور على ما يُرام، ومن ذلك الحين... وأنا مُستمِر في تقديم القرابين، هذا وإلا.... سيأخُذها مني... سيأخُذ كوكو مني!».

سأله عصمت عن سبب اصطحابنا جميعا إلى هذه البقعة لماذا لم يأخذ زبونًا آخرًا؟

مهلًا يا عصمت وكأنه لأمرٍ عادي أن يقتل ذلك العجوز الهَرِم شخصًا كل عام، وكُل ما يشغل بالك الآن هو عن سبب اختياره لنا! أما لو كان قتل أناسًا آخرين لكان الأمر عاديًا لك؟

على كلٍ، لم أطل التفكير، قطع حبل أفكاري بقية حديث التطهير الخاص بعم جابِر: «وهل تظنني كنت سأفعل بكم الأساس؟ لو كنت كذلك لفعلتها منذ زمن! أنتم زبائني هذا من من سنوات طوال يا ولدي كُل ما في الأمر أنني لم أجد سواكم، والموعد لا ينتظر، وبدا لي أن القدر قد إختار صديقكم علاء، وإحقاقًا للحق ما كنت سأحزن عليه أبدًا، ظننت أنه لن يخرُج، وهممت أن أعود بكم إلى الشاطئ، لكن لسوء الحظ... أن شخصا آخر كان قد غرق قبل علاء، قربان... قربان لم أقدمه أنا، لكن علاء رآه، وأنتم سمعتموه، وكدتم تنشروا الخبر، لتُصبح هذه المنطقة مشبوهة، ولم أكن لأستطيع الاستمرار في تقديم القرابين في الأعوام القادمة، ضع نفسك في مكاني يا ولدي، كُنت أمام كفتي ميزان كفَّة فيها حياتكم أمام كفَّة تستقِر فوقها حياة ابنتي، وصدّقني يا ولدي... فهذا ليس ميزانا تتوقع أن تميل فيه أي كفَّة أمام حياة ابنتي!».

قال عصمت في استسلامٍ وكأنه رَضَخَ لما يقول عليه العجوز قدرًا فقررت اصطيادنا واحدًا تلو الأخر... كي يموت السر بموتنا».



تغيَّرت نبرة عم جابر بغتةً، وكأنه تحوَّل إلى الشيطان نفسه وهو يصرُخ: لا يهرب أحد من قدره يا ولدي، لا أنت ولا صديقك الماجِن، ولا ذو النظارات الذي تلذَّذت بعذابه قبل أن أقتله، خطفته وعذبته حتى رضخ لي وتوقَّف عن المقاومة، اعتدت على تصويره بشكل شبه يومي بعدما أداري جروحه وكدماته بمُستحضرات التجميل المُختلفة، وكنت أجبره على أن يُمليني ما سأكتبه على تلك الصور، كُنت أفعل ذلك فقط لألفِت انتباهكم صدقني يا ولدي... كُنت أنوي تركه حيًا حتى أستدرجكم كُلكم وأتخلص منكم سويًا، لكنه قرَّر أن يكون ذكيًا... واستنجد بكم عن طريق تلك الوسوم اللعينة، فهمت الأمر... لكن للأسف بعد. فوات الأوان، لم أندم على قتله... فقد كان هو من اختار مصيره، ولم أندم كذلك على ذلك الصعلوك الذي دفنته حيًا تحت شجرة التوت في قريته، ولا حتى صديقك الصغير».

صمت قليلًا قبل أن يقول: «لكنني سأندم على قتلك يا ولدي».

فجأة... سمعت عصمت يتوسّل إليه في تضرعٍ لم أعهده فيه من قبل عرض عليه المساعدة، سيسوق إليه الضحايا، سيقدم له أشخاصا آخرين مفتديًا حياته وحياة صديقه الصغير، الذي كان... إحم إحم.... أنا! ولدهشتي ... وافَق عم جابر على هذا العرض السخي، فقاربه القديم لم يعد جاذبًا للزبائن، ولربما يتكرَّر الأمر العام القادم فيحين موعد تقديم القُربان ولا يجد العجوز من يُقدِّمه.

بربك يا عصمت! كيف سوّلت لك نفسك أن تساوم حياتك بحيوات الآخرين؟ ألم ترى في ذلك المهترئ انعكاسًا لنفسك إن فعلت مثله؟ ستسوق القرابين مستغلًا مكانتك؟ هل حقًا تظن أن حياتك أهم من كل هؤلاء الذين قتلهم ذلك البغيض ذو الوجه المجعد كسجادة اعتادت أن تدهسها أقدام روَّاد أحد المطاعِم؟

لم يطل الوقت حتى تحوَّل صوت عصمت إلى صوتٍ أذكره وكيف لي أنساه؟



هذا هو الصوت ذاته الذي اخترق أذنيّ وانا أرى علاء مُقيَّدًا بين الطحالب والشعاب، قال الصوت الشيطاني: «لقد خنت العهد، أفشيت السر، وكشفت المُعاهدة التي تساوي حياة ابنتك وخيانة الميثاق لا ثمن لها إلا حياتك أيها الفاني!».

سمعت صوت عم جابر وهو يقول راجيًا: «لا... أرجوك سأجلب لك الضحايا في مواعيدهم... أنا... سأفعل... كُل ما تأمُر به... أرجوك».

قال له الشيطان بصوته الأجش: لابُد وأن تموت أيها الفاني».

سمعت صوت اختناق عم جابر صوته وهو يلفُظ أنفاسه الأخيرة.

في تلك اللحظات، قرَّرت بطارية هاتفه أن تستلم لقدرها، وجدت نفسي قد وصلت أمام بيت عصمت، وعلى الرغم من أني أتيت إلى هنا مسرعًا إلا أنني تردَّدت في اتخاذ قراري هل أصعد..... فربما أنقذ عصمت؟ أم أعود وألقي بكل هذا خلف ظهري وأتابع حياتي خائفًا من أن ألقى نفس المصير؟ هل سأجد جثة واحدة أم اثنتين عندما أصعد؟ أم سيجد من يأتي بعدي ثلاث جثث؟

صعدت الدرج الضيق بتثاقلٍ ، وكأن قدميّ ترفضان أوامر عقلي، أو تنفذاها دون رضا.

وصلت لباب المنزل، وقفت أمامه محاولًا لملمة شتات نفسي، واستجماع قواي وثباتي الانفعالي، واتخذت قراري... سأهرب بمجرَّد أن أرى أي شيء يدعو للقلق، وكأن ما حدث حتى هذه اللحظة كان يدعو إلى حفل غنائي بدار الأوبرا!

قاومت الفزع عندما مرت قطة بجانبي، كدت أن أدهسها دون قصد، حتى وصلت للطابق الذي يسكن فيه عصمت.

أخذت نفسا عميقًا، ما بال الهواء هنا يبدو ملوَّثًا بالروائح الكريهة وكأن أحد الفئران قد تحلل في أحد الأحذية المتراصة أمام الباب؟



دفعت الباب الذي لم يكن مغلقًا من الأساس ودخلت بيميني قارئًا كل ما خطر ببالي من الأذكار والقرآن الكريم، لم أكُن أعرف تفاصيل الشقة من قبل، فتقدمت ببطءٍ في الممر الضيق الذي يُفتح الباب في بدايته، أما في نهايته فاستقرَّ حمام صغير ربما كان خاصًا بالضيوف.

تسارعت دقات قلبي كالطبول التي تمهد لحدوث أمر جلل سيجعلها تتوقف في الحال، اقترب الممر الضيق على الانتهاء، حيث سأجد نفسي مُجبرًا على الانعطاف يسارًا قبل الحمام الصغير لمواجهة الصالة ألقيت نظرة للخلف على باب الشقة، كي أتأكد أن خطة الهروب ما تزال قائمة.

(عزيزي القارئ.. ما دمت تقرأ هذه الرواية فكن على يقين بأن قناة ضَاد هي من قامت بتوفير هذه النسخة! لذا تأكد من أنك تقرأها من قناتنا الرسمية على تطبيق تيليجرام. نعتذر على مقاطعتك، نتمنى لك قراءة ممتعة).

من الجيد أنني تركت الباب مفتوحا على مصراعيه ووضعت أمامه فردة حذاء كي لا يُغلَق من تلقاء نفسه، انعطفت يسارا بلمح البصر، حتى الآن... لم أرى أي شيء غير اعتيادي!

استقرَّت أريكة ضخمة أمام التلفاز الضخم الذي احتلَّ نصف مساحة الحائِط تقريبًا، ومن بينهما طاولة عليها عدَّة فناجين قهوة وأكواب فارغة وما يقرب من سبعة أطباق فارغة إلا من القليل من الفشار أو المقرمشات، تبينت المكان من حولي، شرفة كبيرة بجوار الحائط الذي تتوسطه شاشة التلفاز، وعن يميني الممر الخاص بالغرف، والذي على الأرجح سأجد فيه الجثتين.

بينما كنت أستجمع قواي قبل أن يبتلعني ممر الغرف، سمعت صوتًا بدا كصوت استقرار قدم على الأرض. لم أفكر في شيءٍ وخلال أجزاء من الثانية كنت عند باب الشقة - الذي ولله الحمد كان ما يزال مفتوحًا.



يحيى ماذا تفعل هنا؟».

قالها عصمت من ورائي بصوتٍ أثقله التثاؤب، التفتُّ إليه لأجده واقفا بملابس النوم يفرك عينيه مُتابعًا: كيف جئت إلى " هنا؟ لا أذكر أني أخبرتك بعنوان شقة القاهرة؟».

مهلًا... ما هذا العبث؟ قفز السؤال في عقلي قبل أن تخرج الكلمات إلى لساني: «أين عم جابر؟ لقد كنتما تصرخان ببعضكما منذ لحظات بعدما قتل حسن وإبراهيم قصة ابنته وعرين الشيطان! »

لا كانت نظراته كالذي يشاهد نشرة أخبار باللغة الصينية، لكن المهم... أنه على قيد الحياة، والأهم أنني كذلك أيضًا.

يهم تابعت بينما أصافحه: «لا عليك تبدوا منهكًا وبحاجةٍ للنوم حقًا، أراك لاحقًا.

ورحلت قبل أن ينبس ببنت شفة، خرجت من الباب متنفسًا الصعداء.

ربما كان لديّ عشرات الأسئلة كما لديك، لكنّي أظننا يا صديقي القارئ نتشارك أيضًا بعض الاستنتاجات. على كلٍ... أخذت سيارة أجرة عائدًا إلى حيث ينبغي أن أكون، ولا ينطق لسان حالي إلا بجملة واحدة: «سامحك الله يا عصمت!».



(٥)

مرَّ من الوقت ما يكفي حتى صرنا صديقين مقربين، لا فكرة لديّ عن السبب، ربما بعدما حدث في الفترة الأخيرة من أحداثٍ لم يستطع عقلانا تفسيرها ، لكن ما حدث قد حدث وتجاوزناه. وها نحن ذا نستقِل قطار الدرجة الأولى متجهين إلى محافظتي المفضلة، أسوان.

أخبرني . عصمت قبل أيام أن لديه حفل توقيع هناك، وسألني عن أي فندق يصلُح لأن يقضي به أيامه القليلة هناك، دون الحاجة لأن يبسط يده كل البسط. ولا أُخفيك سرًا... فقد كُنت اشتقت لأسوان صيفًا وشتاءً، ولأهلها من أكبرهم لأصغرهم، اشتقت لكل ما فيها حتى داعبت الذكريات رأسي، فاقترحت عليه أن أصاحبه وأن نسكن في بيت أحد أصدقائي هناك ليومين قبل أن يعود كلانا، وقد كان...

التمست الفرح من بين كلماته، ليس لأنّه وجد صحبةً إلى هناك، ولكن ربما لأنه سيوفِّر تكاليف الفندق.

ومرَّ الوقت سريعًا حتى وجدتنا نجلِس في عربة النادي في قطار الصعيد، يشرب كل منا قهوة رديئة لا تستحق حتى عناء أن تبصقها على الأرض وتدهسها بحذاء رخيص من العتبة.



كسرت الصمت بينما يحاول عصمت مداعبة أسنانه ليُخلِّصها من أثر القهوة: «عصمت، لدي خبران، أحدها سيء، والآخر أسوأ».

داعبت أطراف أصابعه منتصف رأسه وبدا القلق على وجهه، خلع نظارته وهمّ بتنظيفها، وهي حركة اعتاد فعلها عندما يشعُر بالتوتُّر، كيلا يضطر للنظر في عيني مُحدِّثه، وهو يطلُب مني أن أُكمِل: « أما الخبر السيء... أن البيت الذي سنسكنه ملاصق للمقابر، وأما الأسوأ... فالبيت مهجور عتيق لم يسكنه أحد منذ أن ماتت جدة صديقي صاحبة المنزل قبل سنوات، حتى أن الحيَّ أصدر قرارًا بإزالته، وينتظر البيت تنفيذ القرار قريبًا».

أنا مُتأكِّد أن هذا الصوت الغريب قد صدر من محرِّك القطار، فبالتأكيد لم يخرج عصمت مثل هذا الصوت. حاولت تهدئته، عصمت طبعًا وليس القطار، وطلبت منه أن يترك كل شيء عليّ، فأنا أحفظ أسوان عن ظهر قلب، وأن المنزل وإن كان عتيقًا فلا حاجة لنا به إلا للنوم، إذ سنقضي اليوم كله بالمدينة.

بعد رحلة استمرَّت لأربع عشرة ساعة وصلنا إلى حيث ينبغي أن نكون، أخذته في جولةٍ صغيرةٍ داخل السوق السياحي حيث تناولنا غداءنا، ولم ننس أن نتناوَل بعض الفواكِه الطازجة التي يبدو طعمها هنا مُختلفًا عن أي مكان آخر لسببٍ لا يعلمه إلا الله، يبدو أنك حين تُحب مكانًا، تُحب كُل ما يتعلَّق به، ثم ذهبنا حيث يقبع البيت.

كان يقع في منطقة فقيرة تدعى أبو الريش، حيث أكبر مقابر المدينة، تمامًا بجوار كلية الهندسة هناك.

وفي حقيقة الأمر... كان البيت في وضعٍ أسوأ ممّا توقعته بيت كبير مبني على الطراز القديم، متهالكة نوافذه، ومتآكلة أبوابه. مُحاط بالحشائش التي طالت حتى يكاد يختفي فيها طفل في الخامسة إن دخلها، مرتفع سقفه، لا يرى نورًا في الليل إلا من مصباحٍ تدلى من سقفه العالي، محاولًا بيأس أن يضيء الصالة الكبيرة.



تبادلنا نظرة سكنها اليأس، لكن سُرعان ما فرَّت مُبتعدة بعدما تسلَّل الأمل إلى قلبينا، ففي النهاية... سنقضى هنا يومًا أو إثنين، لن نعيش هنا أبد الدهر!

لم يجرؤ أحد منا على دخول الحمّام، أو حتى على الصعود للطابِق العلوي، فبالتأكيد سيكون الوضع أسوأ. على كلٍ، سنبيت ليلتنا فقط ونخرج في باكر الصباح لمباشرة أعمالنا.

انتصف الليل، وبعد أن قرَّرنا أن نبيت في الصالة على هاتين الأريكتين العتيقتين، جهّز كل منّا فِراشه، فغدًا ينتظرنا يوم حافِل بالأحداث، لكن صوتًا يقترب مسرعًا أبى أن نخلد في سباتنا، صوت وقع أقدام ثقيلة على الأرض وكأن دابةً تركض باتجاهنا، اعتدلت من مرقدي ونظرت لعصمت متسائلًا: «من عساه يركض في المقابر في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل!».

وبمُجرَّد انتهاء سؤالي، بدأ شخص ما يطرق الباب بعُنفٍ بالغٍ حتى كاد يخلعه دون هوادة استعذت بالله هل هذا عفريت من الجن؟ أم أن روح أحد الموتى تريد الثأر لصاحبها في المقابر؟ طمأنني عصمت بأن العفاريت لا تطرق الأبواب، وأردف قائلا: اطمأن هذا بالتأكيد لص يريد أن يقتلنا ويأخذ كل ما معنا ».

بالطبع كنت مطمئناً، ألا يبدو على ملامحي الاطمئنان؟ تناول كل منا شيئًا ليزود به نفسه، تناوَلت عصًا غليظة كانت بجوار الباب، بينما أمسك عصمت بقطعةِ خشبٍ تتناسب مع حجمه الضخم، وفتحنا الباب عازمين على أن نوسع هذا اللص ضربًا.

لم يبدُ لنا لصًا على الإطلاق، كان رجلا أشعث الشعر رث الثياب يلهث كمن ركض لأميالٍ طويلةٍ، ترى في عينيه رعبًا كمن رأى شبحًا يخرج من المقابر لتوّه .

«الميّت يطاردني، الميّت يريد أن يقتلني، أنقذوني!».



قالها بارتجافٍ بينما يدخل سريعًا وهو يُغلِق الباب خلفه، ثم وقف بقدميه المتسختين على الأريكة التي كان من المفترض أن تكون مستقر نومي لهذه الليلة ناظرًا من النافذة الصغيرة التي تعلو الجدار من الصالة.

«الحمد لله، هربت منه...»

كنت مرتعدًا من أن أفعل شيئًا، فقررت اعتبار هذا الرجل ضيفًا هبط علينا من المقابِر كما يهبط الوحي من السماء، ولابد لنا من استضافته حتى الصباح، وهذا بالطبع لأنّي أهلُ كرم، تمامًا كعصمت الذي نظرت أطالعه لأجده يصبُّ الشاي في ثلاث أكواب ، ألم أقل لك أننا أهل كرم؟

حاولنا تهدئة الرجل بينما نقدِّم له الشاي، طلبنا منه أن يقص علينا ما جرى، لعل وعسى نستطيع أن نساعده، وبعد قليل من المحاولات، وكثير من رشفات الشاي الساخِن، بدأ يحكي بالفعل.

«كنّا أربعة أصدقاء، أشقياء، مجرمين، قطَّاع طرق أو لصوص، سَمِّنا ما شئت، لا يمُر يوم إلا وأربعتنا نقف مساندين بعضنا البعض كجذوع النخل التي لا تهزها أعتي الرياح في أشد الأيام العاصفة، نسرق بيتًا هنا، وسيارةً هناك، نسطو على بقالةٍ صغيرة ذات مرة، أو مطعمًا كبيرًا في السوق، لم نترك شيئًا إلا وتقاسمناه ، كنا كفريق الكرة كل منا له دوره الذي إعتاده حتى أتقنه، لا يستطيع أي منا أن يعمل بدون الآخرين، استمرَّت عملياتنا حتى ملأ صيتنا الدُنيا، كُنا فخورين بما نفعل أيما فخر، ونتباهى بعدم قُدرة أي شخص على كشفنا أو معرفة هوياتنا، أصبح يُضرَب بنا المثل في المهارة الإجرامية، وهو ما ملأ قلوبنا بالغرور والفخر».

صمت قليلًا وكأنه يزن كلماته، ارتشف رشفة من كوب شايه قبل أن يستكمِل حديثه: «حتى أتى ذلك اليوم الذي قُدِّر لنا فيه أن نسطو على بيتٍ آخر كنا نراقبه لفترةٍ، أو لأكن أكثر دقة فقد كان الشواف هو مسؤول المُراقبة وتحديد الأهداف في عصابتنا .



يُراقِبه منذ فترة لا بأس بها، أخبرنا بأننا سنسطو على بيتٍ تسكنه امرأة عجوز بلغت من العمر أرذله بمفردها، تملك من النقود ما يكفي لجعل أربعتنا يترك السرقة لأبد الآبدين، جميع أبنائها من العاملين أو المُقيمين بالخارِج، ضعيفة البنيان، هزيلة الجسد، كانت عملية مثالية للغاية، فغياب أقرباء العجوز يُبعِد عنا صُدفة أن يتواجَد أحد أقاربها بالداخِل، أما ضعف جسدها وكِبَر سنها كانوا يعنون أننا لن نجد منها مقاوَمة تُذكر. عملية سهلة للغاية، كانت ليلة صيفية أضاء فيها القمر السماء، توجهنا للبيت حيث قسمنا الأدوار كعادتنا سننتظِر نحن الثلاثة أمام باب البيت حتى يتسلَّق الميِّت الشرفة ويلاقينا عند الباب، يفتح لنا فندخل والبقية من السهل توقعها».

أخذ نفسًا عميقًا، نظر للباب في خوف وكأنه يخشى أن يقتحِم مُطارده المنزل علينا، قبل أن يقول: «تسلَّق الميّت حتى ولج في غرفة العجوز بهدوءٍ، كانت تنام في سكينةٍ تبينها الرجل من أنفاسها الهادئة المنتظمة، وما إن عقد العزم على النزول لملاقاتنا عند الباب حتى تراجع في آخر لحظة عندما رأي شيئًا جعله يغيِّر رأسه تمامًا».

صمت للحظةٍ ، لا أعرف هل لإضفاء طابع درامي على ما حدث، أم أنه لم يتعمَّد ذلك، أكمل بعدها حديثه: «رأى كرسيًا مُتحرِّكًا ذا عجلات يلاصِق الفراش كانت العجوز قعيدةً، لا تستطيع الحركة، ظنَّ الغبي نفسه مدربًا للتنمية البشرية، أو شيء من هذا الهراء، نسي للحظةٍ أنه سارِق عتيد، توقّف في مكانه مُتأملًا المقعد الذي لمعت أجزائه المعدنية تحت ضوء القمر، مرَّت لحظات قبل أن ينتبه إلى أن . صوت تنفُّس العجوز الهادئ قد اختفى، وهذا لا يعني سوى شيء واحد... لقد استيقظت العجوز! نظر للخلف ورآها كانت ترتعِد خوفًا وهي تنظُر نحوه، بالطبع كان غير قادرة على الحركة، بينما منعها الخوف من الصراخ أو الحديث، كانت رعدة جسدها قويّة للغاية لدرجة أنه خشي أن تنفك أوصالها وتتناثر في أركان الغُرفة، ابتسم محاولًا طمأنتها، لكنه عجز عن ذلك، كان الرُعب قد فرض سيطَرته على كُل شيء لدرجة أنها كانت عاجزة على سماع أو فهم أي شيء يقوله، ولم يجد أمامه سوى حل واحد فقط».



بلع ريقه ثُم تابع قائلًا: «عاد من الشرفة إلى الخارج وأخبرنا بما رأى، لن يسرق امرأةً

عجوزًا لا تقوى حتى على الفرار، كان يظن أن هناك شرفٌ بين اللصوص، من كان يظن نفسه هذا البغيض؟».

قالها بصدقٍ بالغٍ، ظهر فيه تأثُّره ومدى اقتناعه بمبدأ الشرف بين اللصوص، لكنه لم يتوقَّف عن الحديث، أكمل حديثه قائلًا: انفعل الشوَّاف فأخبر طفَّاشة بأنه كان يعرف أنه لا نفع من الميِّت، أننا قد أخطأنا بإحضاره معنا، غضب الميِّت فبادل الكلمة بكلمات، رادًا صاع الإهانة بعشرةٍ من أمثالها، واستشاط الجميع غضبًا حتى تحوَّل عتاب بعض المُجرمين بصوتٍ هامسٍ على عدم سرقة عجوز قعيدة إلى عراك بين مجموعة من المُجرمين الغاضبين، خفنا من أن يعلو صوته ونصبح في عداد المقبوض عليهم، انهلنا عليه بالضرب حتى نزل أحدنا على رأسه بحجرٍ أسقطه أرضًا، وضعناه في جوالٍ من الخيش، لم نكُن نعرِف أنه يُعاني من أزمة في التنفُّس، وأنه لن يتحمَّل البقاء في الجوال طويلًا، وقبل أن نفهم ما حدث... مات صديقنا... مات مُدّعي الشرف والأخلاق الذي رفض سرقة سهلة كانت ستجعل منّا من بعد ذلك قومًا مصلحين، أخذناه من هنا وألقينا به في أحد العيون المفتوحة في المقابر و ..... »

قاطعه عصمت بلسانٍ ثقيلٍ: «مهلًا، من أين أخذتموه؟ وأي مقابِر تلك التي ألقيتموه فيها؟».

أكمل الرجل بعدما انتهى من الشاي: «من هنا، هذا البيت، ثم دفنّاه في المقابر المجاورة».

حدجني عصمت بنظرةٍ كانت كالسهم الحارق، وبصراحة... لا يُمكِنني أن ألومه، تابَع الرجل كلامه بينما صبّ له عصمت كوب شاي آخر.

«ذهب كل منا لقضاء أموره، وتعاهدنا ألّا نكشف السر لأحد، وأن نوقف النشاط تمامًا حتى تستقِر نفوسنا، وبعد أن كنا أربعة أصدقاء أشدّاء أقوياء، صرنا ثلاثة خائفين



وميّت وكان شريط الأيام يمر بانسيابٍ، لكن لأن دوام الحال من المُحال، فقد قطعه اتصال هاتفي، أيقظني من نومي الذي كان متقطعا من الأساس... كان رقمًا غريبًا، لم يكُن موجودًا ضمن ذاكرة هاتفي أو ضمن قائمة معارفي، تردَّدت قليلًا قبل أن أحسم أمري وأجيبه، قالوا لي أن صديقي في العناية المركزة بعد أن انقلبت به سيارته على الطريق، ويريد أن يقابلني، حاولت أن أعتذِر لكن مُحدثي قال إنه قد توقّع اعتذاري وطلب منه أن يُخبرني أنه يجب أن آتي وإلا كشف السر!».

صمت قليلًا وهو ينظر في عينيّ قبل أن يُتابِع: «حَسَم هذا الأمر، هرولت مسرعًا إلى المستشفى، وجدت صديقي الآخر

هناك، وكانت هذه أول مرَّة يجتمع فيها ثلاثتنا بعد أن دفنّا الميت في ذلك اليوم، لكن ثالثنا كان أقرب إلى الموت من الحياة محطم العظام، مهشم الوجه وكأن قطارًا قد دهسه مرتين، لا يستطيع أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ دون أن يتألم، أخبرنا أنه رأى الميت. بالأمس يعبر الطريق من أمامه!».

قاطعه عصمت قائلًا: «كيف ذلك؟».

زيَّنت ابتسامةً حزينةً وجه الرجل المليء بالخوف وهو يقول: «كيف ذلك؟ هذا بالضبط ما نطقت به أفواهنا، بصوتٍ خافتٍ خشية أن يسمعنا أحد المُمرضين، ما يقصَّه صاحبنا مستحيل، لقد وارينا وجه الميت بالتراب وقُضيَ الأمر، ربما كان شعوره بالذنب وتأنيب ضميره هُما ما دفعاه إلى هذا، ربما أفرط في شرب ما لا يجب أن يُشرَب، إلا أنه أصر أنه رأي الميت يعبر الطريق من أمامه صائحا أن لا أحدًا منا سينجو من عواقِب ما فعلنا!».

قُلت بصوتٍ خرج مُرتعدًا رغما عني: «لكن... لكن هذا مُستحيل!».

قال لي في لهفةٍ، وكأنه لم يُصدِّق أن هناك من يوافِقه الرأي: «هذا مستحيل، أليس كذلك؟ لكنه أصرَّ على ما قال، انقلبت السيارة بعد أن انعطف الرجل فجأة حتى صار



أمامنا على فراش المُستشفى بهذا المنظر المؤسف، نظرت في عيني صديقي الواقف إلى جواري أمام صديقنا الذي بدا لنا وكأنه فارق الحياة، توقفت الأجهزة عن تتبع النبض، ودوى صفير حاد يكاد يصُم الآذان، دخلت إحدى الممرضات صارخةً: ماذا فعلتم؟ هل أغضبتموه؟ أخرجتنا من الغُرفة بسرعة ونادت الأطباء، بينما خرج كلانا من المستشفى والصمت يفرض سيطرته التامة علينا، نخشى الكلام، بل نخشى حتى أن ينظر أحدنا للآخر، نخشى أن يكون هذا حقيقيًا».

قال عصمت: لكن هذا من المُستحيل أن يكون هذا حقيقيًا!».

ابتسم له الرجل بحُزنٍ مرّة أخرى وهو يستكمل سيل حديثه الذي لم ينقطِع منذ دخل تقريبًا: « وتغيَّرت الأحوال، أصبحنا صديقين مليئين بالخوف، وميِّت وعائِد من الموت! ذهبنا إلى أحد المقاهي المزدحمة، وحاولنا أن نشعر ببعض الطمأنينة بعد أن حضرنا مراسم دفن صديقنا الهالك، أو ربما الذي قتله الميت مع سبق الإصرار ، كُنا نشعُر بالخوف الشديد، ترتعِد أجسادنا بعد أن فقدنا القُدرة على السيطرة عليها لصالِح الخوف، ومن بين أنفاسي المُتقطِّعة أخبرت صديقي أن الموتى لا يعودون للانتقام، هذا مُستحيل تمامًا، ولا نقاش فيه، ربما كان أحد أقربائه يحاول الانتقام له، ولكن كيف لأحد أن يعرف لم يخرج الموضوع من بيننا منذ ذلك اليوم، قضينا اليوم كله على المقهى قبل أن يعود كل منا مكرهًا إلى منزله على عهدٍ بأن نتقابل بمجرد أن يطلع الصبح استيقظت من نومي على مهاتفة أخرى من قسم الشرطة».

شهقت وأنا أقول: «هل... هل مات صديقك؟».

هزَّ رأسه بالإيجاب وهو يقول: «مات صديقي الذي كان معي بالأمس، سقط من شرفة منزله على سياجٍ حديدي اخترق كامل جسده، أرادوا مني أن آتِ للتحقيق لأني كنت آخر من صاحبه بالأمس، لم أقل لهم إلا ما حدث بالأمس، انتهوا من التحقيق معي وتركوني حرًا في الذهاب استسمحت أحد الأمناء أن يخبرني بحقيقة ما حدث، أخبرني أنه لا أحد شهد مقتل صديقي إلا ذلك الشاب الذي اتخذ من الكشك أمام



بيت صديقي مصدرًا للرزق قال لهم الشاب أنه سمع صراخ القتيل قبل أن يسقط من الشرفة، كان يخاطب شخصًا يناديه بلقب (الميّت)، ظلَّ يصرخ بهذا الاسم قبل أن يسقط ويستقر فوق السياج الحديدي الذي اخترق جسده بلا رحمة، أدركت حينها أن الميت قد عاد لينتقم من كل منا بأبشع الطرق الممكنة، ولم يتبق سواي، وعندئذٍ أدركت أنني هالك لا محالة.

حاولنا إقناعه باستحالة ما يقول فالموتى لا يعودون من الموت للانتقام، لو أن هذا حقٌ لكان أهلُ الأرض جميعًا هالكين. لكنه أبى أن يُنصِت السمع إلينا أو إلى صوت العقل والحكمة أكمل حديثه وهو يقاوم رغبةً حثيثةً في البكاء: «تيقَّنت وقتها أن الأمور قد تغيَّرت مرَّة أخرى، لقد أصبحت وحيدًا، وهناك إثنين من الموتى، وعائِد من الموت قادِم لقبض روحي».

مسح دمعة كانت قد تسلَّلت من عينه اليُسرى وقال بصوتٍ مليءٍ بالخوف: كُنت خائِف بطريقةٍ لم أشعُر بها من قبل، لم أكُن أعرِف كيف يجب أن أتصرَّف! أو ماذا يجب أن أفعل! شلَّ الخوف عقلي تمامًا فأصبحت عاجزًا حتى عن التفكير، لكنني وجدت فكرة... هبطت من بيتي مُتجهًا إلى قسم الشرطة حاولت أن أحكي لهم ما حدث، لم يصدقني أحد، طلبت منهم أن أقضي ليلتي في الحجز كي لا أعود لبيتي، أخبروني أن هذا ليس فندقًا، وأنهم لا يسجنون الأبرياء، عدتُّ بتثاقلٍ إلى حيث أسكن كُنت أخشى المبيت في منزلي، فاستأذنت جماعةً من الخفر يحرسون بيتًا على وشك أن يكتمل بناؤه في أن أبيت معهم الليلة، رفضوا واستنكروا طلبي، فكَّرت كثيرًا فيما يجب أن أفعل، إلى أن تفتَّق ذهني إلى أن أختبئ في المكان الوحيد الذي لن يبحث عني الميِّت فيه، فما كان مني إلا أن أعود إلى حيث بدأ كل شيء، دخلت المقابر باحثًا عن مكان قبر الميت، وبينما كِنت أبحث... سمعت صوتًا، أظنّه كان هو كان يريد أن يقتلني فأتيت راكضًا إلى هنا».

قاطعه عصمت بأن لا أحد يطاردك إلا شعورك بالذنب وتأنيب الضمير أيها التَعِس كيف تقتلون صديقًا لكم وتريدون أن تنعموا بحياةٍ هادئةٍ؟ لو أن أحدًا قد عاد من



الموت فهو ضميركم الذي مات عندما سوّلت لكم نفوسكم بسرقة امرأةٍ عجوزٍ قبل سنوات.

فاجأنا الرجل بطلب أن نصحبه إلى المقابر لنتأكد بأنفسنا أن الميت لم يُفارِق القبر،

وكان هذا طلبًا جريئًا وقحًا لا يصدر إلا من مجنون، وكان الرجل مجنونًا مع مرتبة الشرف بالفعل. خفنا أن نرفض طلبه هذا، فكما أقول دائمًا : لا يجب أن تخاف إلا من المجنون أو اليائس الذي لا يملك شيئًا يخشى أن يخسره، وكان هذا الرجل كليهما.

***

خطونا داخِل المقابر بتثاقلٍ وحذر ، شققنا الظلام بهدوءٍ شديدٍ، تتقافَز قلوبنا من بين أضلعنا مع كل نسيم يهز أغصان الشجر، نتفادى أن تطأ أقدامنا أحد العيون المفتوحة أو أحد شواهد القبور عن غير قصد. بينما تصدح من حولنا أصوات لم أستطِع تفسير أي منها، هل هي مُجرَّد حشرات أو تُراها قوارض تسكُن المقابر؟ هل هي أصوات أقدام قطط أو كلاب تمُر هنا وهناك، كذلك الكلب الذي ينظر إلينا بعينيه اللامعتين من قلب الظلام قبل أن يختفي كأن لم يكن؟ أم تُراها أصوات نسيم الهواء الذي يُداعب أوراق الشجر؟ أو ربما كان الرجل مُحقًّا، وكان ذلك صوت خطوات الميت الذي يحاول اصطياد آخر قاتليه؟ لا أعلم يا رجل، لكن بعدما حدث مع عم جابر لم أعد استبعد شيئًا.

تفهم وصلنا إلى قبر الميت بالطبع كل القبور هنا لموتى، لكنك ما أقصد. شمّرنا سواعدنا وبدأنا في إزالة التراب عسانا نفتح العين التي من المفترض أن نجد فيها الميت، لكن الأمر كان صعبًا، جرب أن تنبش قبرًا ليلًا وأنت تنتفِض من الخوف كلما لمحت حركة تشق قلب الظلام أو همسة تُشبه صوتًا شيطانيًا مُرعبًا، ناهيك عن تلك الظلال اللعينة التي تتحرَّك بين القبور دون أن تنسى التوقُّف لإلقاء نظرة علينا بين الحين والآخر، نبشنا القبر تمامًا... لكننا لم نجد للميِّت أثرًا!



تسارعت أنفاسي وأنا أنظر لعصمت برعبٍ كاد أن يعتصر روحي، بينما تعالَت صرخات الرجل بجانبنا وهو يقول:

«أخبرتكما أن الميت قد عاد لأجلي، لقد أخبرتكما»

قبل أن يُقاطِعه صوتًا ساخرًا يقول: «أتبحثون عني؟»

بالطبع كان هو! لم يحتج الأمر منا فطنة أو ذكاء أو حتى سرعة في التفكير ، كان الميت من خلفنا يحاول إنهاء ما بدأ .

ركضت وعصمت عائدين من نفس الطريق في لحظة هجوم الميت على صاحبه الذي سيلقى حتفه قريبًا، جذبه إلى داخِل العين المفتوحة وظل صراخه يتلاشى شيئًا فشيء، ونحن نبتعد بأقصى سرعة باتجاه البيت العتيق.

كان أخر شيء سمعناه هو الرجل يصرُخ ورُعب العالم بأسره يختبئ في صوته: «لا تتركوني».

بينما أجابه الميِّت ساخرًا: «لن يتركوك... قريبًا ستصبحون معًا!».



(٦)

ظنّ كلانا أنّ الجزء الأسوأ من الليلة قد مرَّ وأن ما تبقّى سنقضيه في السمر حتى الصباح، ربما سنكتب يومًا عن هذه الليلة - كما نفعل الآن - ولكنّ كما نعلم فلم تمر الليلة كما ظننا.

لكننا لم نكُن نعلَم أن الليلة لم تنتهي بعد! وأن القادِم أسوأ.

***

أغلقنا الباب خلفنا، ووقفنا مُلتصقين بالباب ونحن نلتقِط أنفاسنا بصعوبةٍ، وبدون أي مُقدِّمات، قرَّر عصمت أن يطرَح سؤالًا عبقريًا: «ألم تُلاحِظ أننا كُلما اجتمعنا سويًا... انتهى لقائنا بمُصيبةٍ ما؟».

وعندما لم أجبه، قرَّر أن يطرَح سؤالًا آخرًا يُنافِس الأول في عبقريته: «ماذا سنفعل الآن؟».

كانت هذه هي، القشّة التي قسمت ظهر بعير صبري ، أمطرته بما لم يعجبه من كلماتي حول هذه الصداقة البائسه وان لا بد لكلينا أن يفترقا في طريقيهما، فلقد لقينا من سفرنا هذا ما يكفينا. ليرد عليّ بلهجة شديدة: «هذه أقدارنا ولستُ مسئولا عن وقوع أي منّا في طريق الآخر».



ربما أصاب من الحقيقة شطرًا، لكنّه نسي أن لولاه ما كنت لقيت عم جابر من الأساس، ولما كُنت قد عُدت إلى أسوان الآن ولا كُنت قد قابلت الميت!

جلسنا على أريكة قديمة أنهكها الزمن ونحن مستمرَّان في نقاشٍ لا طائِل منه، لكننا كُنا نغوص في أعماقه طواعية هروبًا من خوف يحتل قلبينا، قبل أن يقطع حدة النقاش توتُّر المصباح القديم المتدلّي من السقف المتصدع الذي يصدر حرارة أكثر مما يصدر ضوءً، ارتعد المصباح، وهو أمر لا يحدُث عادةً إلا في البيوت المهجورة أو في أفلام الرعب لا ضير في ذلك فلسنا اول شخصين يبيتان في منزل بجانب مقابر هربا للتو فيها من ميّت عاد إلى الحياة، يحدث ذلك عادةً، أليس كذلك؟

صاحب رعشة المصباح صوتٌ كالعاصفة القادمة على بعد أميال، لم أتبيَّن في البداية مصدره لكن عصمت طمأنني أنها معدته تسأل عن موعد العشاء لا أكثر!

تبادلنا الضحكات المصحوبة بالهموم قبل أن تنفتح سدود السماء - على غير العادة في أسوان - لتهطل موجة من الأمطار كالرصاصات الثاقبة على سقف البيت مُشَكِّلة معزوفة مع هزيم الرعد وحفيف الأشجار بالخارج، معزوفةً كافيةً لردع أعتى القلوب وأصلبها. تبعت تلك المعزوفة طرقات ضعيفة على الباب الخشبي المتهالك، ليزداد توتُّر المصباح متماشيًا مع نبضات قلوبنا، فهرعنا من مقعدنا بجوار الباب محاولين النظر من تشققاته. قال صوتًا خافتًا: «هل من أحد هُنا؟ أيمكنني الدخول؟ الجو ممطر والبرد شديد، ولا أعرف كيف أعود لمنزلي».

كان مصدر هذه الكلمات طفل ربما لم يبلغ الحلم بعد ينسدل شعره الأسود الثقيل على جبهته السمراء حتى تكاد عيناه تستتران بدا لي محض طفل ضلَّ طريقه، أو ربما عفريت من الجن تمثَّل بهيئة طفل، أو ربما الميت، فكل شيء أصبح غير منطقي الآن.

قاطعني عصمت حتى قبل أن أنبس ببنتِ شفةٍ: «إيّاك!».



مشيرًا إليّ بيده أن أبتعد عن الباب ثم تابع بهمسٍ «ما هذا بطفل وما نحن له بفاتحين»

ولكن ماذا إن كان طفلًا حقًا؟ لقد كنّا في حال يرثى لها بمُجرَّد تسلُّل قطرات الماء من شقوق السقف فوق أرضية الطابق الأعلى بالفعل، بينما تُهاجمنا طلقات من تيارات الهواء البارد المشبع بالماء التي تجتاح شقوق الجدران محاولةً انتهاك أجسادنا كسهام الحروب، فما بالك بطفلٍ يقف في العراء على مقربة من المقابر في هذه الأمطار؟

قُلته له محاولًا الدِفاع عن قضيتي: «لكنه مُجرَّد طفل صغير».

نظر لي في تشكُّكٍ وحيرةٍ وهو يقول: «وكيف تعرِف أنه طفلًا صغيرًا من الأساس؟».

قبل أن أجيبه، اقترب عصمت من الباب مرةً أخرى مشيرًا إليّ بيده لأتابع الكلام، ألقى نظرةً خاطفةً من بين شقوقه وهو يهمس: «ألم تلاحظ أن الطفل لا يصدر أي صوت وكأنه رحل أو... أنه يحاول استماع ما نقول».

في تلك اللحظة، عاد صوت الطرقات وإن كان أشد قوّة وكأن... وكأنه الطارِق غاضِب، حاول عصمت أن يسترِق السمع من بين شقوق الخشب، إلا أنه لم يرى شيئًا، سمعنا الطفل يكرِّر طلبه في الدخول، سأله عصمت عن هويّته، وعمّن يكون، وماذا يفعل في الخارج في هذه الساعة المتأخر من الليل؟

لم يأته الرد الذي كُنا ننتظره، لكن تردَّد صدى ضحكة ساخرة، ضحكة من المُستحيل تمامًا أن يكون مصدرها طفلًا صغيرًا، أو حتى بشريًا من الأساس، وقال صوت خشن أجش: «أما عن هويتي، فلا أعتقِد أنها مُهِمة، لكن المُهم الآن... أنني لم أعُد أنتظِر إذنكم للدخول، لقد عرفت كيف سأدخُل».



سمعنا سويًا صوت أقدام تتحرَّك من أمام الباب، وكأن صاحبها يمشي مُبتعدًا ، كدت أتنهد وأنا أتنفس الصعداء، ظننت أن الكابوس قد انتهى، لكن عصمت أشار لي كي أصعد للطابق الثاني وأُطالع الطفل من الشرفة، صعدت الدرج المتهالك بحذرٍ خوفًا من الانزلاق حتى لا أفقد حياتي في هذا المكان، دخلت الشرفة التي كانت في غرفة العجوز صاحبة البيت، وببطءٍ وحذرٍ ارتكزت على سور الشرفة الخشبي وألقيت نظرة لأجد المكان فارغا!

لم يكُن أمام البيت سوى بركةً موحلةً بفعل الأمطار، وبعض الكلاب التي تحاول الاحتماء هنا أو هناك.

بالطبع قلَّل الخوف من نسبة ذكائي، ولم أتوقَّع أن السور الخشبي المتهالك هذا قد ازداد ضعفه بفعل الزمن والأمطار، وأنه قد قرَّر الاستسلام في هذه اللحظة تحديدًا، ليأخذني معه في رحلةٍ إلى الأرض. كانت سقطةً مزدوجةً، سقطة أهانت جسدي كما أهانت ذكائي حق الإهانة.

من حسن حظي ولُطف رب العباد أن السقف لم يكن شاهق الارتفاع، ولم تكن السقطة من على ارتفاعٍ جللٍ يؤذي أذى شديدًا، فقط شعرت بألمٍ شديدٍ في ساقيّ وذراعيّ ورأسي ورقبتي وصدري وكتفيّ وجذعي. وقفت ملطخًا بالوحل أمام الباب وناديت عصمت أن يفتح لي الباب، رد عليّ بفطنةٍ ودهاءٍ: «من أنت؟»

لم يكن هذا أبدًا وقت المحقق كونان، طالبته بالتخلُّص من الحالة التي تصاحبه وقت الجوع، ليرد عليّ بفطنةٍ أكبر: «ماذا لو كنت الميت وقد اتخذت من صوت يحيى خدعة للتسلل إلى هنا كي تقتل كلينا؟ لماذا أصدقك؟ أعطني سببًا واحدًا يجعلني أصدق أنك.... »

قاطعته قبل أن يستطرد كخطباء السياسة مذكرًا إياه بعم جابر وما حدث معه، فأدخلني أخيرا معاتبًا إياي على السقوط من الأعلى وإيذاء نفسي. وبينما أحاول تفسير



ما حدث بالأعلى لمحت الطفل على درجات السلم بالقرب من المكان الذي كنا نحتلّه منذ قليل، لكزت عصمت مشيرًا إلى الطفل بعيني ففزع عصمت من منظر الطفل، وعلى الرغم من كون الطفل طبيعي المظهر والهيئة إلا أن عصمت شعر بالفزع عندما

أمال الطفل رأسه قليلا وهو يقول: «شكرًا لكما».

تبادلنا النظرات، لم يَرَه أينا وهو يدخُل إلى المنزل، ورغم ذلك... فها هو ذا يقف أمامنا، ورغم معرفتنا بأن هذا الأمر مُستحيلًا تمامًا، إلا أنه بدأ في التحرك ببطءٍ وبخطواتٍ ثابتةٍ شكّلت مع صوت المطر تناغمًا مخيفًا، لم أنزع عيناي من على رأس الولد لعلّي أجد في مظهره شيئا يدل على هويته، اتسعت ابتسامته وهو يقول بصوتٍ طفولي مُرعبٍ: «طلبت منكما إدخالي والتمست فيكما الطيبة والصلاح».

تصاعدت حدّة اللهجة من الطفل حتى بدا صوته كصوت رجل بالِغ: «ولكنّكم أبيتم إلا أن تتركوا طفلًا في العراء مع من عاد من الموت».

ضحك ضحكة شيطانية وهو يقول: «لقد أخبرتكما أنني سأجد طريق أدخُل بها إلى المنزل، وها أنا ذا... أقف أمامكما، والآن... أتي دوركما، هل ستخرجان من هذا المنزل؟ أم لا؟».

كانت هذه هي اللحظة التي انفجر فيها المصباح الوحيد سيطَر الظلام على كُل شيء، ولم يعُد هناك ما يُنير المنزل سوى ضوء القمر الخافِت وضوء البرق الذي يدوي بين حين وآخر، أما عن الصبي... فقد اختفى، تبخَّر تمامًا، لم يكُن له أي أثر. لكن... لكن هذا مُستحيل تمامًا، ربما توارى هنا أو هناك! ربما يختبئ في أي مكان ولأي سبب!

صرخت في عصمت ابحث عمّا تزود به عن نفسك».

أمسكت بقطعةٍ من الخشب، بينما أمسك عصمت بقالب طوب بلَّته الأمطار حتى تغيَّر لونه، صعدنا إلى الدور العلوي ببطءٍ وحذرٍ، وبفحصٍ سريـعٍ قُمنا به، تبيَّنَّا عدم



وجود أماكِن تصلُح لاختباء الطفل سوى مكانين لا ثالِث لهما، إما خلف هذا الباب المُغلَق أو داخِل هذا الدولاب الخشبي المُتهالِك الذي يرتكِن على الحائِط، اتفقنا أن يبحث كل منا في مكان ما، توليت مسؤولية البحث في الغُرفة بينما تولّى عصمت مسؤولية الدولاب، تقدَّمت وفتحت الباب... توقّعت أن يقفز الطفل من خلفه، لكن حمدًا لله، لم يحدُث أي شيء، تنهدت وأنا أنظر لعصمت، لاحظت الرعدة التي بدأت تسري في يده وهو يفتح الدولاب الخشبي، شهق وهو يتراجَع للخلف، لكن للمرة الثانية... لم يحدُث شيئًا!

نظرنا لبعضنا بعضًا، تنفّسنا الصعداء، وتبادلنا الضحكات العصبية الناتِجة عن التوتُّر، فجأة... سمعنا صوت من خلفنا، من رُكن الغُرفة المُظلِم، يسألنا: هل تبحثون عني؟».

صرخنا في فزعٍ بالغٍ، فزع يناسب فتاتين في الثانوية العامّة، وليس رجلين مُحترمين، لم يكُن أمامنا خيارًا سوى أن نهبط للأسفل سريعًا، ركضنا نحو باب البيت الخشبي الذي كان لا يزال مفتوحًا، خرجنا من المنزل، وقفنا تحت زخَّات المطر التي لا تنقطِع، بالكاد نستطيع التنفُّس، نظر لي عصمت وهو يقول: «هل انتهى الأمر بهذه السهولة؟ ألم يكن يتحدَّانا أن نستطيع الخروج من المنزل؟».

انتبهت للأمر بغتةً سألته: «ماذا سنفعل إذن؟ هل نعود إلى الداخِل؟».

وقف وهو يخلع نظارته التي تراصَّت قطرات المطر على عدساتها جنبًا إلى جنبٍ، وهو يقول: «هناك شيء غريب في الأمر برمته يا يحيى، لم يفعل هذا الطفل شيئًا سوو الحديث، أما عن دخوله إلى المنزل، وانفجار المصباح فهي أمور يُمكِن أن نعزوها للصُدفة ليس إلا، هناك شيء غريب!».

وبصراحةٍ ... كان مُحقًا، فكَّرت قليلًا قبل أن أقول في تشكُّك: «أنت مُحِق، هل تظن أن هذا الصبي ظهر لنا كي يُنفّذ دورًا مُعينًا أو لسببٍ مُعيَّنٍ؟».



وقبل أن يُجيبني عصمت سمعنا صوتًا يقول: «كلاكما مُحِق، كان له دور مُعيَّن، أن يثير خوفكما بما فيه الكفاية كي تتركا المنزل، وتخرجا لي كي أنتقم منكما!».

نظرنا للخلف، سمعنا صوت إغلاق الباب من شدة الرياح، أو ربما ليُغلِق علينا سبيل الهروب إلى الداخِل مرّة أخرى، وخلفنا... كان يقف شابًا صغير الحجم، نحيل، لكن هناك شـ ، شيء غريب بشأنه، ربما هي نظراته نظراته مُخيفة، خالية من الحياة، سأله عصمت: «من أنت؟».

اتسعت ابتسامة الشاب المُرعِبة، لكنني أجبت قبل أن يُجيبه الشاب: «الميت!».

كان هذا آخر ما قُلته قبل أن نبدأ في الركض سريعًا دون تفكير ولو للحظة في أننا نتجه إلى المقابر عائدين إلى حيث كنا نهرب منذ قليل.

حاولت النظر بطرف عيني إلى الوراء قبل أن ينهرني عصمت مذكرا إياي بالقاعدة الذهبية التي تقول: (إن كنت تهرب من شيء ما فإيّاك والنظر خلفك!).

ركضنا كالفرائس الفزعة التي تفر من مفترسٍ متربصٍ لا ينوي إلا أن يفتك بها، نحاول مراوغة الصخور والعيون المفتوحة من تحت أقدامنا حتى لا نهوي في أيٍّ منها فنصبح من النادمين. وسط الظلام لمع ضوءُ سراج كأولئك الذين اعتدنا رؤيتهم في الأفلام القديمة، انتشرت خيوط نوره لتشق ظلام المقابر راسمةً لوحة تعبر عن معنى افتقده كلانا، الأمل.

عجوز في أرذل العمر، ترى ذلك من تجاعيد وجهه التي تشبه موج البحر في ليلة عاصفة غائرة هي عيناه حتى لا تكاد تظنّه يبصر بهما من خلف نظّارة مقعرة ترتسم على وجنتيه ابتسامة تمنحك طمأنينة بقدر ما تمنح المقابر من فزعٍ، ينسدل جلبابه الناصع بياضه حتى تخاله منيرًا أكثر من السراج في يمينه، وكأنها لم تكن تُمطر من دقائقٍ معدوداتٍ!



سألنا بهدوءٍ وهو يقترِب منّا بثباتٍ: «من أنتما يا بنيّ؟ وماذا تفعلان في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟».

صاح عصمت «أنجدنا يا شيخ يطارنا الميت ويريد أن يفتك بنا».

قال الشيخ: «أي ميت ذلك يا فتى؟ الموتى جميعهم هنا!».

صاح عصمت به بغضبٍ: «كلا، لا أقصد الموتى المدفونين، هنالك ميّتٌ عاد من الموت ليقتلنا».

ورغم أنه كان مُحقًا في كُل ما نطق به، إلا أنني توقعت أن يهلك الشيخ من الضحك أو يتهمنا بتعاطي إحدى العقاقير المهلوسة، أو ربما سيظننا نسخر منه كعادة شباب هذه الأيام الذين لا يحبون كبار السن. لكن أي مما قد يخطر ببالك لم يحدث، ابتسم الشيخ بهدوء غير مفهوم وهو يقول: «ومن قال إني أقصد الموتى المدفونين؟».

تبادلت النظر مع عصمت، وعلامات الرعب ترتسم على قسماتنا، تابع الشيخ كلامه قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة:

«اتبعاني، سأخرجكما من هنا».

بالطبع تبعناه! هل كنت ترى لنا ملاذً - بعد الله سُبحانه وتعالى - إلا هذا العجوز؟ لم نثق به بالتأكيد ولكن لم يكن لدينا أية خيارات أخرى، على الأقل فهذا الرجل هو من الأحياء، أليس كذلك؟

على كلٍ كانت السماء قد خلت من السحب وهدأت تلك العاصفة العجيبة، وأضفى القمر ضوءً كان كافيًا لأن نرى وطأ أقدامنا كنا نتبع الشيخ ونتهمهم بهمهمات حول ماهيّة الرجل وكيف له أن يسير في المقابر بهذه الأريحية الشديدة، وأنّى له ألا يخطئ



في أي اتجاه، ربما سمع الشيخ بعضًا من همهماتنا فقال بصوتٍ عالٍ: «بالمُناسبة، أنا لست شيخًا، أنا الحاج رفاعي التربي، أحفظ هذه المقابر كما يحفظ كل منكما حذاءه».

تابعنا السير من خلفه حتى وصلنا لنقطة نعرفها جيدًا، إنها العين التي خرج منها الميت نعرف الطريق من هنا إلى الخارج بالتأكيد. همهمت إلى عصمت فأخبرني أنه يعرف كيفية الخروج حق المعرفة نلتفت يسارًا ثم عند المنعطف الثالث نسلك اليمين فنصبح خارج المقابر على الطريق.

ناديناه قائلين: «حسنًا يا عم رفاعي، كانت تلك فرصة سعيدة نتمنى حقًا أن تتكرَّر في

ظروفٍ أفضل، أظننا نعرف طريق الخروج من هنا، فكما تعلم... نحن نريد العودة للقاهرة ولا نرغب في تفويت موعد القطار».

قالها عصمت محاولاً الحفاظ على رباطة جأشه، بينما كنت اصطنع الانشغال في شيءٍ ما قبل أن يقاطعه عم رفاعي موجها السراج إلى اليسار: «بالطبع، عليكما أن تسلكا هذا الاتجاه إذا أردتما مقابلة سناء خطَّافة الأطفال».

كدت أبلع لساني فقلت: «ماذا؟ من؟ إلى أين؟».

أدار السراج وخطى بضع خطوات إلى الاتجاه الذي كنا نعتزم السير فيه وهو يقول: «خطَّافة الأطفال، سناء، التي كانت تعيش هنا قبل سبعين عامًا، هجرها زوجها لأنها غير قادرة على الإنجاب، والجميع هنا هم عوام جهلاء لا يفقهون شيئا ولا يعلمون، كانوا يسخرون من ابتلائها، والمرأة يا بني لا تملك شيئا في حياتها أغلى من أمومتها، فأن يحرمها بارئها منها فإن ذلك ابتلاء لو تعلمان عظيم طلّقها زوجها وتزوج من أختها التي لم تلبث شهورًا حتى وضعت أول ابنائها من صلبه... جن جنون المسكينة، فراحت تهشَّم البيت وتصرخ كمن تتحدى أحبالها الصوتية في معركة للبقاء طردها صاحب الشقة التي كانت تستأجرها فاتخذت لنفسها مكانا بجوار محطة الصرف بالقرب من هنا».



أشار بيده في اتجاهٍ عامٍ لم أتبيَّنه جيدًا، قبل أن يُضيف: «لم نكن أفضل منكم كثيرًا منذ سبعين سنة يا بنيَّ، فكان الأطفال يرمونها بالحجارة والخبائث وهم يتغنون باسمها - سناء المجنونة - حتى انتهى بها الأمر في المقابر، فالموتى كما ظنّت لن يؤذونها لم تنسَ أبدًا أن زوجها هو السبب في كل ما حدث لها، مرَّت السنون حتى رأت سناء زوجها يصطحب ابنه ذا السنوات الخمس إلى المقابر يوم العيد، فاختطفته واختفت وسط الأشجار وشواهد القبور حتى دُفِنَ بكاء الطفل تحت التراب لم تهدأ نار قلبها، فرأت أن ابن زوجها ربما يريد بعض الأُنس مدفنه، فاختطفت حفيد صاحب الشقة الذي طردها، وكذلك استمرت سناء التي لم يشك أحد فيها لأن الجميع ظنّها قد هربت بعدما أذاها الجميع، حتى ضاقت عليها العين التي سكنها معها عشرات الأطفال القتلى، أخبرني أحدهم أنه شاهدها تجري في المقابر وقد أُضرمت فيها النيران ومن خلفها يركض العشرات من الأطفال متراقصين، ولما حاول الاقتراب منها اختفوا جميعًا».

سأله عصمت ببراءة الأطفال: وهل أطفأوها! هل ماتت؟».

أخبرته بتهكّمٍ: «بالتأكيد ماتت، قال لك منذ سبعين عاما، كما أن...».

قاطعني عم رفاعي مُستكملًا حديثه: «إذا أردتما معرفة حقيقة موتها... فلابد لكما من أن تسلكا هذا الطريق».

هززنا رؤوسنا بألّا فائدة من ذلك، فنحن نصدق عم رفاعي بالطبع، ثم سألته: وماذا إن سلكنا اليمين؟».

أدرا سراجه قائلًا: اذهبا إذن، ستجدان الشّمّام هناك».

ابتسم عصمت وتحسّس بطنه، وكأنه تذكر فاكهته المفضلة، لكزته في جانبه فاعتدل في وقفته قبل أن يسأل عم رفاعي عن مقصده.



أجابه عم رفاعي: «كان شابًا في مقتبل عمره، كالعصافير ينام بعد العشاء ويستيقظ فجرًا، ولأن الواحد منا إن سلك دربًا من الدروب المحمودة فإن الشيطان ينتظره في بداياتها، فاختلط الفتى بفتية آخرين، لا يشبهونه، بل كانوا على النقيض تماما، وربما كان ذلك ما جذبه إليهم من الأساس، فشرب معهم ما كانوا يشربون، وفعل ما كانوا يفعلون، حتى صار جسده مرتعًا للأمراض ولآثار الإبر اسودَّ وجهه حتى صار كالمدخنة من الداخل، خسر عمله، ثم خسر دنياه فباع ما يملك من سيارةٍ وشقةٍ وأثاثٍ، حتى هجره أصحاب السوء بعد أن صار بلا مغريات. واتخذ لنفسه من المقابر بيتًا، ظلَّ الفتي وسط الموتى، يشكو آلامه ويستمع إلى شكواهم من تحت التراب، يعاني من أعراض الانسحاب، كما يعانون من انسحابهم، يسمع صيحاتهم فيطمئن أنه ليس وحده من يعاني، حتى عاد الفتى إلى صحته وطرد الجسد السم من عروقه، فعزم ألّا يترك أحدًا من أولئك الفتية إلا ويقضي عليه فوجدوا الأول ملقى في إحدى الترع، مغروسًا في جسده عشرات الإبر، أما الثاني فقد وُجِد معلقًا في شجرةٍ و الإبر تتدلى من وجهه والثالث وجد عاريًا في حوض استحمامه، بعد ان استبدل الماء بمئات الإبر خمدت نيران الفتى بعد أن انتقم ممن أضاعوه، وتذكَّر بعد حين أنه كان أول من أضاع نفسه... فاتخذ قراره الأخير».

سألته كطفل جالِس بجوار والدته في إحدى قاعات عرض الأفلام، حين ينتهي العرض دون أن يجد المُشاهدين إجابةً مُرضيَّة لما يدور في خلدهم من أسئلة: «قتل نفسه!».

تابع عم رفاعي حديثه قائلًا: اذهب في هذا الطريق لربما تجد الإجابة التي تُرضيك».

قال عصمت بتأففٍ: «اسمع يا رجل، لقد سئمنا، نريد فقط الخروج من هنا لا طاقة لنا بقصص من التراث كالنداهة، أو أمُنا الغولة، أو حتى أبو رجل مسلوخة، جُل ما نُريده هو أن نخرج من هنا إذا تكرَّمت».

التمس عم رفاعي اليأس في صوت عصمت، فأمرنا باتباعه حتى أوصلنا إلى بداية الطريق، وكان هذا أكثر من كافيًا، فمن هنا نستطيع رؤية المنزل، فرحنا برؤيته كفرحة



الطفل في نهاية يومه الأول في المدرسة عندما يرى أمه قد عادت كي تصحبه إلى البيت.

ودّعنا عم رفاعي وسط أوراق الشجر الجافة المتناثرة على الأرض بين الأغصان التي تبدو وكأنها سقطت أثناء العاصفة، قبل أن يعلو صوت قادم من داخل المقابر وصاحبه يقول: «هل . تظنون أنكم ستخرجون من هنا أحياء؟».

هذا الصوت... أعرفه جيدا، هذا صوت الميت!

أشار لنا عم رفاعي بالذهاب واستدار فكان في مواجهة الميت، سأله بغضبٍ: «ماذا تريد يا ميت؟ ألم تثأر ممن ظلموك؟ هل ظلمك هذان الشابان؟ هل هم من قتلاك؟».

سأله الميت بسُخريةٍ: «وما شأنك أنت يا رفاعي، منذ متى والموتى يسـ».

قبل أن يكمل ما يقول ألقى عم رفاعي سراجه الزجاجي على أحد الأغصان الجافّة على الأرض لتنتشر النيران في الأغصان والأوراق الجافة مُلتهمًة ، كليهما، وتتبع صرخة الميت صيحة خشنة من عم رفاعي، صيحة لم تكن صيحة بشر على الإطلاق: «اهربا من هنا، ولا أريد رؤيتكما هنا مجدّدًا»!..

ركضنا إلى الطريق بعد أن اختفى كل من الميت وعم رفاعي بداخل ألسنة اللهب كسر عصمت الباب بدفعةٍ واحدةٍ، حزمنا حقائبنا كيفما اتفق تركنا الباب على الأرض، حجز عصمت تذكرتين للعودة فى عربة رجال الأعمال... وانتهى الكابوس!

كنا كالشحاذين على الرغم من أننا بدلنا ثيابنا في حمام القطار، إلا أن قلة النوم، والفزع الذي رأيناه كانا كفيلين بأن نصبح كالموتى.



سألت عصمت بدهشة بينما يسترخي كلًا منا على مقعده: . هل حدث ما حدث حقًا؟».

على ضحك وهو يقول: «لا أعلم، لكنه لا يُنسى، ربما سأقصّها يومًا أحد صُنّاع المحتوى، أو ربما سننشرها في كتاب، لا أدري حقًا».

انتفض عصمت من كرسيه عندما رأى أحد رجال الخدمة الفندقية - الذين يرتدون قبعات رخيصة تغطي غالب الوجه فلا تتبين من الوجوه إلا القليل من اللحى - يدخل دافعا عربة مليئة بالطعام والشراب المثلّج والساخِن.

قال له عصمت بنهمٍ: «أريد شطيرة دجاج مقلي، وشطيرتي كفتة، وشطيرة تونة، وشطيرة كبده ، وشطيرة سجق، ماذا عنك يا يحيى؟».

وعلى الرغم من أن العربة تبدو ممتلئة بكل ما لذَّ وطاب من الطعام والشراب، إلا أن الرجل أجابه: «لا يوجد».

لاحظت أن الركاب ينظرون إلينا بتعجب منذ أن ركبنا القطار، لكنّي لم أهتم كثيرًا ، قلت للرجل: «أحضر لي فنجانًا من القهوة لو سمحت».

فكرَّر ذات إجابته: «لا يوجد».

«شاي؟». «لا يوجد».

«ينسون؟». «لا يوجد».

«عصير؟». «لا يوجد».

«شطائِر؟». «لا يوجد».



سأله عصمت بعصبيةٍ شديدةٍ: «ماذا لديك إذن؟».

أخرج الرجل شيئًا ما من جيبه، قبل أن يمد يده إليّ وهو يقول: «هذه».

كانت محفظتي! تحسست جيوبي فلم أجدها، إنها محفظتي بالفعل تناولتها لأجد بداخلها كل شيء كما كان.

قال الرجل بغموضٍ: سقطت منك قبل ساعات في المقابر انتبه في المرات القادمة».

وذهب الرجل بعربته، ظللت أقلِّب في المحفظة بينما ينظر لي عصمت بتعجبٍ، قمت من مقعدي مسرعًا محاولًا الوصول للرجل في العربات الأخرى، ولكني لم أجده، أخذت القطار طوليًا من العربة الأولى حتى الأخيرة، لكنني لم أجد شيئًا!

عدت إلى مقعدي، أرحت ظهري، كان عصمت قد غط في نومٍ عميقٍ، نظرت إليه وتنهدّتُ قائلًا: «سامحك الله يا عصمت!».



(٧)

كان التعب هو وقود نومنا نمنا دون أن ندري نومًا عميقًا هادئًا غير مليء بالكوابيس رغم صعوبة ما حدث لنا خلال الأيام القليلة الماضية، لكنه كان نومًا مُرهِقًا بسبب هزات القطار التي لا تتوقَّف.

كُنت غارقًا في النوم، قبل أن أشعر بيدٍ تهزني بقوةٍ، فتحت عينيّ ببطءٍ مقاومًا نعاسًا يأبى أن ينحسِر، لأجد عصمت هو الذي يهزني، أريد أن أعرِف من الذي عيَّن عصمت مسؤولًا عن قلة راحتي في الآونة الأخيرة؟

فتحت عينيّ ونظرت إليه مُتسائلًا، حكَّ رأسه الخالي من الشعر وهو يقول: «أنا جائِع!».

لطالما كُنت جائعا يا رجل ما الجديد؟

حاولت أن أعود إلى النوم وأنا أقول له: اذهب إلى عربة النادي واطلب ما يحلو لك، ولا توقظني مرَّة أخرى ما لم ينقلِب القطار».

أغلقت عينيّ، لكنه أبى أن يترُكني، هزَّني مرَّة أخرى، فتحت عينيَّ في نفاذ صبر، نظرت إليه بغضبٍ، فقال: «تعالَ معي!».



كدت أعترِض أو أطلِق له صوتًا يُنافِس صوت مُحرِّكات القِطار، لكن الجوع قرَّر أن يقرصني في معدتي في هذه اللحظة بالضبط، فكَّرت قليلا قبل أن أحسِم أمري، لا مانِع من تناول شطيرة أو إثنين قبل أن أعود للنوم.

تقدَّمت المسير، كوني أكثر خبرةً منه في عالم القطارات، لأنني لطالما سافرت بالقِطار أثناء فترة دراستي هنا، كُنت أعرف أن عربة النادي وهو الاسم الذي يُطلِقه الناس على عربة الطعام الموجودة في القِطار، وعادةً ما يتوفَّر فيها ما لذ وطاب من الطعام والشراب.

حسبما أتذكَّر كانت عربة القطار هي العربة رقم (أربعة). بينما نحن كُنا نحتل مقاعِد في العربة رقم (إثنين)، إذن... ما علينا إلا عبور العربة رقم (ثلاثة) فقط قبل أن نصل إلى وجهتنا فتحت الباب الفاصِل بين العربتين دخلت إلى العربة والتفت للخلف وأنا أنظر إلى عصمت قائلًا: «لن يكون الطعام لذيذا مثل طعام المطاعم الذي اعتدناه».

هزَّ رأسه مُتفهمًا، فعُدت لمتابعة المسير بين المقاعِد التي تناثر عليها المسافرين بين نائم ومُستيقظ، تابعتنا نظرات عدد لا بأس منه من المُسافرين، لكن واحدًا بعينه لفت أنظاري، كان يرتدي قميصًا أخضر اللون، فاقِعه، شعر أشعث بشكل جنوني، وعينين مليئتين بشر غير مفهوم، ابتسمت له بسُخريةٍ وأنا أمُر بجواره قبل أن أسمع عصمت من خلفي يهمس لنفسه: «ما بال هذا المجنون!».

وصلنا إلى الباب الذي يفصل بين العربتين رقم (ثلاثة) ورقم (أربعة)، وضعت يدي على المقبض وفتحت الباب، نظرت لعصمت من فوق كتفي وأنا أقول: «مُستعد يا صاح؟».

أجابني وهو يربت على بطنه الضخم: «مُستعد للغاية».

فتحت الباب ودخلنا إلى العربة، لكنني سُرعان ما تجمَّدت في مكاني، اصطدم بي عصمت من الخلف وهو يُطلِق سبَّة بصوتٍ خافتٍ، سألني عن سبب توقفي بهذا



الشكل المُفاجئ، أشرت له نحو العربة، اتسعت عيناه في غير فهم وهو يُطالِع المقاعِد التي تناثرت يُمنةً ويسارًا وفوقها قبع العديد من المسافرين، قال: «ألم تقُل إن عربة النادي هي العربة رقم (أربعة)؟».

هززت رأسي دون أن أنطِق، حسنًا... على الأرجح كانت مقاعدنا في العربة رقم (واحد) بينما ظننا أنها في العربة رقم (إثنين) ... هذا تفسير منطقي، لا بأس بذلك، مشينا في الممر الفاصل بين المقاعد والذي تعمَّد صانع القطارات أن يجعله ضيِّقًا بما فيه الكفاية كي تصطدم بالمسافرين المتراصين وتضطر لتقديم الاعتذارات لكل من طالته أجزاء جسدك بالأذى عن دون قصد.

سرنا وسط المُسافرين في دهشةٍ، حتى وصلنا إلى آخر العربة، قبل أن أصل إلى باب العربة، لفت نظري أحد المُسافرين على وجه التحديد، كان مُميّزًا لافتًا للأنظار، كان يرتدي قميصًا أخضر اللون، فاقعه، شعر أشعث بشكل جنوني، وعينين مليئتين بشر غير مفهوم هذه المرة... كان هو من ابتسم لي بسُخريةٍ، وكأنه يسخر مني، سمعت عصمت من خلفي يقول في دهشة وكأنه يُحدّث نفسه: «لقد رأيتك من قبل يا رجل!».

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتجاهل الموضوع، نحن نعيش في عالم يوجد به توائم من المُمكن أن يكون هذا الرجل هو توأم الآخر الذي يجلس في العربة السابقة، تجاهلت كل شيء. وضعت يدي على مقبض الباب الفاصل بين العربتين، أخذت نفسًا عميقًا وطردت كل خوفي وتوتري مع زفيره.

وفتحت الباب!

هذه المرة ... لم يكن الأمر مُختلِفًا! كانت عربة قطار عادية في انتظارنا!

مليئة بالمقاعد والمُسافرين، لكن الرجل ذو القميص الأخضر كان يجلِس في مقعده الأثير مُبتسمًا، هذه المرَّة لم تكُن ابتسامة سُخرية، بل كانت ابتسامة ثقة ... كثقة



الصيَّاد في مواجهة فريسته الضعيفة.

أمسك عصمت بكتفي وهو يقول: «لنعُد من حيث أتينا».

هززت رأسي وأنا أقول: «لا، أعتقد أننا يجب أن نُتابع المسير».

قال: «هذا هو ما يحدُث تمامًا في كُل أفلام الرعب، لنعُد من حيث أتينا ونكسر تلك الحبكة التقليدية».

قلت حاسمًا أمري: «سنستمر».

تجاهلت خوفي ووضعت فزعي جانبًا وأنا أسير في العمر متظاهرًا بالشجاعة، بمُجرَّد أن اقتربنا من الباب الفاصل بين العربتين، تحرّك ذو القميص الأخضر، وقف عن مقعده وسار نحونا، شعرت بالفزع يُسيطر على كل حواسي، فتحت الباب مُسرعًا ودخلت منه أنا وعصمت بسُرعة، قبل أن تغلق الباب من خلفنا.

مرَّت لحظة من الهدوء قبل أن نشعُر بمن يحاول دفع الباب بقوةٍ بالغةٍ، ضغطنا على الباب أنا وعصمت بكل قوتنا، قاومنا الدفعات القوية التي تُريد فتح الباب، لكننا كنا أقوى، مرَّت دقائق قليلة... لكنها مرّت علينا كساعاتٍ طويلةٍ.

بدأت قوانا تخور من أثر المقاوَمة، وبدأت الدفعات تزداد قوة، بعد لحظات... بدأنا نشعر بالاستسلام، فجأة... وقبل أن نستسلم سمعنا صوتا من خلفنا يقول بهدوء: «هل تحتاجان إلى المُساعدة؟».

قُلنا دون تفكير: «طبعًا يا رجل».

مدَّ لنا السائِل يد المُساعدة حرفيًا، وضع يده بين يدي ويد عصمت كان قويًا ... لأن الدفع لم يعُد يترُك تأثيرًا قويًا، أو... أو ربما توقف.



سمعت عصمت يهمس: «يحيى».

نظرت له مُتسائلًا، فأومأ برأسه نحو ذراع مساعدنا، نظرت له وشعرت أن العالم قد توقف للحظة، فقد كان مساعدنا يرتدي قميصا أخضر اللون، شهقت أنا وعصمت وعُدنا للخلف في خوفٍ. كان الرجل ذو الشعر الأشعث والقميص الأخضر هو الذي يساعدنا في مقاومة الدفعات...

في مقاومة دفعاته!

ابتسم وهو يقترب منا تراجعنا للخلف أكثر، حاول عصمت أن يستنجد بالنائمين، صرخ بصوتٍ عالٍ، هزّهم بقوةٍ، حاول كُل شيء... لكن شيئًا لم يُجدي نفعًا.

ابتسم الرجل وهو يقترب منا بخطواتٍ واثقةٍ: «لن يُساعدوكما».

سألته وأنا أتراجع أمام خطواته الواثِقة: «لماذا؟».

هزَّ كتفيه في ثقةٍ وهو يقول: «لأنهم موتى... هم السابقون وأنتم اللاحِقون».

سأله عصمت بصوتٍ مليء بالرُعب: «من أنت؟». ضَحِكَ الرجل بصوت عال، قبل أن تتحرك شفاه الموتى المحيطين بنا لتنطق بصوته: «السفاح ذو القميص الأخضر».

عادوا لسكون موتهم وكأنهم لم يقولوا شيئًا لتوّهم نظرنا لهم في فزعٍ، قال عصمت: «أعتقِد أنني سمعت عن هذا الرجل من قبل».

وصلنا للباب الفاصِل بين العربتين، حاول عصمت - لأنه كان خلفي - أن يفتحه لكن مقبض الباب أبى أن ينصاع له، حاصرنا الرجل، اتسعت ابتسامته للغاية، اقترب منا أكثر، فجأة... تقدمني عصمت، وجدت نفسي خلفه، وهو يقول للرجل: «هل تسمح لي أن أخبره بقصتك أولًا؟».



وقف الرجل مُتشكّكًا، قال عصمت بتواضعٍ مُفتعلٍ: «قصتك هي إحدى القصص

التي لا ينبغي لأحد أن يموت قبل أن يسمعها، أرجوك... أريد أن أخبره بمدى عظمتك وذكائك قبل أن نموت».

كان عصمت يُغازل غرور الرجل، ويبدو أنه نجح في ذلك، توقف الرجل وهو يقول: «أسرع من فضلك».

ابتسم عصمت وهو يقول: «كان ذلك السفّاح يختار ضحاياه من مُسافري القطارات، يتظاهر بالحاجة إلى المساعدة، وعندما يمد له أحدهم يد المُساعدة يقتله، ويضعه في مقعد القطار وكأنه نائم قبل أن يلتقط معه صورة فورية».

التفت وهو يقول لي: «هل تعرف تلك الكاميرات الفورية التي تُخرج الصورة فورًا؟».

هززت رأسي وأنا أقول: «أتذكّرها».

في تلك اللحظة أشار لي عصمت بطرف عينه على مطفأة الحريق، فهمت المقصود، عاد عصمت لينظُر للرجل قائلًا: «ومن فرط عبقريته... كان يحرص على إخفاء ملامح وجهه، لكن قميصه الأخضر كان ضيفًا دائمًا في كُل الصور، وكان ينزل من القطار في أول محطة يتوقّف فيها القطار بعد موت ضحيته، يذهب إلى أحد الفنادق ويبات ليلته، يستدرِج خلالها أحد العاملين في خدمة الغُرف ويقتله، يتركه في الغُرفة في مكانه ويستقل أول قطار، دون أن يهتم بوجهته، ويكرر فعلته مرارًا وتكرارًا».

نظر لي وهو يبتسم وعينيه تتسعان في تساؤل عن سبب وقوفي في مكاني دون أن أسعى للحصول على مطفأة الحريق في الحقيقة... كانت القصة شيقة للدرجة التي جعلتني أغرق في تفاصيلها وأتناسى دوري في الخطّة.



عاد لينظُر للرجل قبل أن يقول: «هل تعرف أنهم لم يستطيعوا القبض عليه؟ وأنه حين شعر بالاكتفاء ولم يعد يرغب في متابعة طريقه، ركب القطار وقتل نفسه تاركًا لهم صورته وهو يضحك بسُخريةٍ على صدره».

ضحك وهو يُتابع: «كان عبقريًا... يسخَر منهم ويضحك في وجوههم، ها أنتم ذا... لا تستطيعون القبض علي... وها أنا ذا... الوحيد الذي يتحكَّم بمصيره».

ابتسم الرجل مسرورًا لإشادة عصمت بعبقريته، فجأة... تحرِّك عصمت قائلًا: «الآن».

هاجَم الرجل، دفعه أمامه بقوةٍ قبل أن يسقُطا أرضًا، تحرَّكت سريعًا لأمسك بمطفأة الحريق، فتحتها وأطلقت سائلها الأبيض عليهما معًا، سمعت عصمت يصرخ في غضبٍ من وسط السحابة البيضاء القوية قبل أن يشق طريقه خارجها وهو يعرُج، أشار لي إلى الباب، حاولت فتح الباب... فاستجاب لي هذه المرة فتحت الباب وخرجت همَّ عصمت بالخروج لكن يدًا شقَّت طريقها من وسط السحابة البيضاء لتمسك بقدمه، حاول التحرر من تلك القبضة القوية التي أمسكت بقدمه... لكنها كانت أقوى منه!

انتبهت لأن مطفأة الحريق لا تزال في يدي، رفعتها عاليا وهبطت بها بكل قوتي على اليد التي تُمسك بقدمه، تركته اليد للحظات، كانت كافية لألقي بمطفأة الحريق نحو مُنتصف السحابة البيضاء، وليُغلق عصمت الباب سريعًا.

سمعنا صوتًا من خلفنا يقول: «ماذا تفعلان هنا؟».

صرخنا ونحن ننظر للخلف، لكن حمدًا لله... كان أحد العاملين بالقطار، نظر لنا في غضبٍ وهو يقول: «هذه السيارة مغلقة للتحسينات، ماذا تفعلون هنا؟».



قلت: «هناك سفاح ذو...». قاطعني عصمت وهو يقول: «يقصد صديقي أن يقول إننا كنا نبحث عن عربة النادي لنسد جوعنا!».

قال الرجل مبتسمًا : «ما هي أرقام مقاعد كما؟».

أخبرناه بأرقام المقاعد فطلب منا أن نعود لنستريح في أماكننا ريثما يحضر لنا قائمة

الطعام لنختار منها ما نُريد أكلنا حتى اكتفينا ونمنا حتى وصلنا لمحطتنا، لكننا لم نرى ذلك الرجل ذو الشعر الأشعث وهو يقف خلف إحدى نوافذ القطار وينظر لنا شذرًا!

يبدو أن قصتنا معه لم تنتهي بعد... لكن ربما نقصها عليكم في كتابٍ آخر...

أما الآن... فأنا بحاجة للكثير من الراحة!

سامحك الله يا عصمت....



(٨)

أغلقت الباب بعنفٍ غير مقصود، فقد كنتُ مشتاقًا للعودة إلى وأن أستلقي بكامل جسدي تحت هواء المُكيّف. خلعت ملابسي وقفزت في الحمَّام وأنا أتوق إلى حمامٍ باردٍ يزيح بعض الألم عن عظامي المتيبسة وعضلاتي المُجهدة.

لم أفكر في شيء والماء البارد ينهمر على رأسي، كم تمنيت أن تأخذ قطرات الماء من رأسي الذكريات بقدر ما كانت تأخذ من الأقذار والتراب. اتخذت قراري بألا أكلم عصمت أبدًا مهما حدث، سيظل صديقي، لكنّي في غنى عن كل هذه المغامرات، هو كاتب رعب له تقديره في ذلك حقا، وما أنا إلا شاب لم أبلغ عامي السادس والعشرين - آنذاك - لا ينبغي أن أرى شابا يقيد بالطحالب تحت الماء، أو أسمع صوت الجن عبر الهاتف مع عصمت، أو أن يعود أحد الموتى للحياة محاولًا قتلي!

كلا لست مضطرًا إلى ذلك أبدًا. خرجت من الحمام ملتحفًا ببعض الملابس الخفيفة، ارتديت قميصًا قطنيا أسود اللون كبنطالي الذي لا أرتدي غيره، ألقيت بجسدي على الفراش الذي عانقني باشتياق كالوالد الذي يرى ابنه بعد عودته من السفر أغمضت عيناي وهدأت أنفاسي سأنام نومًا عميقًا ربما لم أنعم به في حياتي كلها، وسأحلم أحلامًا عجيبة، ربما أرى فيها قطارًا يطير بجناحين فوق نملة تقود دراجة هوائية، ويجلس من خلفها فيل يحاول أن يعبث بالجرس، فتنهره النملة، فيبكي الفيل بصوت طفلة حديثة الولادة!



لا أذكر بما حلمت تحديدًا، لكنّي أذكر كيف استيقظت. يرتكِن فراشي إلى الجدار الذي يضم الباب، بجوار سريري طاولة معدنية صغيرة ذات طابقين، أضع عليها عادة هاتفي، وأدويتي، ومصباحًا خافت الضوء في حال نويت قراءة شيئًا قبل أن أنام، على يمين السرير جدار يمنعني من السقوط من الجانب الآخر ويواجه ذاك الجدار المواجه للشارع حيث توجد في يمينه نافذة تسمح بدخول قدرًا يسيرًا من الضوء من خلف الستارة. ويقابل فراشي الجدار الرابع، الذي بدوره يواجه الباب، ينتصف دولاب الملابس الأبيض - على عكس طلاء الغرفة الأسود بالكامل - هذا الجدار فيكون مواجها لقدمي عندما أنام. وبزاويةٍ قائمةٍ مع الغرفة بكاملها تقع غرفة عملي، والتي كنت أنيرها دائما بنور أحمر كي لا تدخلها الحشرات.

استيقظت على ثلاث لكزات على كتفي الأيسر، كلكزات والدتي حين توقظني لأذهب للكلية، كان الضوء خافتًا، هَرِبَ القليل منه عبر خصاص الستارة الموجودة على النافذة، فتبينت أننا قبيل وقت الشروق، أتى القليل من الضوء الأحمر من غرفة عملي، رأيت فيه جسدًا كجسد أمي حين تفرغ من صلاة الفجر، بإسدالها الطويل الذي لا يرسم أي معالم أخرى.

تمتمت ببضع كلمات توحي بأن صباح الخير يا أمي، قبل أن تتسع حدقتي عيني وخلايا مخي لأدرك أنني أعيش بمفردي، وأن أمي ما كانت لتأتي في مثل هذه الساعة الباكرة.

ومع اتساع حدقة العين يزداد وضوح الرؤية، كان ظلًّا ثنائي الأبعاد، كأنه على الحائط لكنه ليس على الحائط، فارع الطول، تصل ذراعاه النحيلتان إلى مستوى كتفي المستلقي، لا معلم له، قاتم شديد الظلام، قفزت من مرقدي إلى الخلف في أقل من ثانية حتى كدت أصطدم في الجدار فزعًا، اختفى الظل فورًا في ثلاث ومضات مندمجًا في الجدار الأسود.



استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وفتحت الشرفة، وقفت فيها ناظرًا إلى اللا شيء، ماذا حدث؟ هل هي هلاوس؟ كلا، لقد لكزني أحدهم على كتفي وشعرت بذلك، أقسم بأني شعرت بلكزات مادية على كتفي، لم يكن تشنجًا عضليًا أو ما شابه.

هرعت إلى الحمام كي أتأكد أن ملابسي ما زالت جافة، توضأت وصليت وجلست أفكر بهدوء وعقلانية. منتظرًا شروق الشمس. لم يدر في خُلدي سوى سؤالًا واحدًا: لماذا أيقظني هذا الظل؟ ليُعلمني بوجوده؟ ولم يريد ذلك؟

تناولت زجاجة الماء من على الطاولة المجاورة للفراش لأجدها فارغة، ربما شربت منها في وسط نومي، لا يهم. قمت متثاقلًا متجهًا للمطبخ، مررت بالصالة المظلمة لأنني أتكاسل أغلب الأوقات في تغيير المصباح المحروق، طالما أن مصباح الحمام والمطبخ يضيئان ما يكفي من الصالة، فالشقة كانت صغيرة بالفعل. بينما كُنت في الصالة سمعت صوت زحزحة أطباق، وماذا في ذلك، نسمع ذلك كل يوم، أطباق وأكواب تتزاحم فوق بعضها بعضًا دائمًا، لكن اليوم كان الأمر مختلفًا، كُنت أشعر بالخوف أخاف أن أجده في المطبخ، خصوصًا وأن ظلًا غامضًا قد أيقظني منذ قليل، عدت لغرفتي، أخذت هاتفي، وأضأت الكشاف، وذهبت إلى المطبخ، وما أن وجهت المصباح إلى المطبخ ... حتى لمحت شيئًا يختفي في السقف كلا لم يكن فأرا، عُدت خطوتين للخلف وأنا أحاول أن أضيء مصباح المطبخ الذي أبى أن يضيء، احترق مصباح المطبخ تعاطفا مع أخيه الموجود في الصالة.

أخذت زجاجة مياه من الثلاجة ووقفت أشربها كمن سار في الصحراء لأيام حتى جفٌ حلقه. وبينما أجلس واضعًا الزجاجة في مكانها شعرت بريح ساخنة تمر من خلفي، تمتمت: «سامحك الله يا عصمت!»

قمت سريعًا موجها هاتفي إلى الخارج، بدا كل شيء طبيعيًا في الصالة المظلمة، توجهت للحمام قبل أن تبتل ملابسي لأجد بابه مفتوحًا، هذا غريب... أنا لا أترك



باب الحمام مفتوحًا على الإطلاق، أذكر أنني سمعت إحدى ضيفات البرامج التلفزيونية تقول أن ترك باب الحمام مفتوحًا ينشر طاقة سلبية مظلمة في البيت.

اقتربت من الحمّام بحذرٍ شديد، لم يعد هنالك مجال للشك الآن، إما أني جننت أو أن هنالك شيء من عالم آخر يعبث بعقلي. مددت يدي إلى الحمام متحسسًا مفتاح الكهرباء، أخشى أن أدخل فيبتلعني الظلام، تحسست الجدران الباردة محاولا الوصول إلى المفتاح، فجأة... شعرت بيد باردة تُمسك بإصبعي وتضعه على المفتاح ضاغطة به عليه!

وعندما ملأ الضوء الحمام... لم أجد شيئًا!

وماذا عن تلك اليد الباردة التي أمسكت بيدي كانت باردة كأن أحدهم وضع ثلجًا جافًا على كفي، كأني وضعت يدي داخل صندوق ماء مثلج! لكن لم يكن هناك غيري!

وقفت على باب الحمّام مُمسكًا بهاتفي في يدي، والخوف يملأ قلبي، فجأة... فجأة راودني شعور غريب، لمحت شيئًا ما يتحرك بطرف عيني، وعندما التفت نحوه... لم أجد له أثرًا.

كان يتحرك خروجًا من المطبخ، نحو الصالة، لكن... السرعة التي تحرك بها لم تكُن سُرعة طبيعية أبدًا!

تلفّت حولي كالمجنون، أرمق أركان شقتي الفارغة، لا شيء، لا شيء على الإطلاق! ولم يعني هذا سوى شيء من اثنين، لا ثالث لهما، إما أنني فقدت عقلي وأصابتني لوثة جنون، وإما أن هناك ما يحدث من حولي دون أن أستطع فهمه، وهذا الاحتمال أقرب للواقع.

حسنًا، لقد طار النوم من عيني، أغلقت باب الحمام بعد ان انتهيت وتوجهت لغرفة عملي، ربما كان يدور بعقلي أن النور الأحمر هنا كان سيبعد عني الشياطين، لا أعلم،



فتحت الحاسوب عساي أجد فيلمًا أشاهده، لألمح بطرف عيني باب الغرفة يهتز اهتزازا طفيفا كأن هواءً مرَّ بجانبه.

تبًّا لهذه الأشياء وتبًّا لمعرفتك يا عصمت، تأكدت أن نافذة الغرفة مغلقة، فأنا لا أفتحها على الإطلاق كي لا تتسلل الأتربة إلى الغرفة تبحث؟». سمعت صوتًا غريبًا يتردد صداه داخل عقلي: «علامَ تبحث؟».

تلفّت حولي، أكاد أجن مما يحدث، فكلما نظرت يميني أو يساري، لم أجد شيئًا، حسنًا، يبدو أنني متعب، يبدو أنني بحاجة للنوم، ربما ما يزال عقلي متأثرًا بما رأي في الأيام الماضية. دخلت غرفتي وألقيت بجسدي على السرير، أدرت ظهري للباب وواجهت الحائط وأغلقت عيني.

من عادتي أنني لا أنام إلا في هدوء تام، ولهذا عندما بدأ باب الغرفة في التحرك بهدوء وبطء، أفقت، وظننت أنني أتوهم لن أدير ظهري ولن أنظر مهما كلفني الأمر، بدأ صوت الباب بالارتفاع مشيرًا إلى أنه سيغلق، ولم يكن تهديدًا زائفا، لأنه سُرعان ما انغلق... بعنف!

حسنًا، قمت فزعًا متحسسًا الطاولة محاولا الوصول لهاتفي لكن للأسف، كُنت قد نسيته بالخارج في الغرفة الأخرى!

غرقت الغُرفة في ظلامٍ دامسٍ إلا من خيوط الشروق التي تتخلل الستارة الموجودة على النافذة، كانت الغرفة خالية تماما إلا من كلينا، أنا والظل... نعم، كنت أراه، أشعر به، أشعر برياح ساخنة وتارة باردة، أشم رائحة نتنة، أرى خيالات تتحرّك في الظلام، دونما أي صوت.

تحركت باتجاه الدولاب غرفتي صغيرة بما يكفي كي أصل للدولاب في خطوتين فقط، فتحت الدولاب باحثا عن شيء يمكنني استخدامه. هل نسيت أن أخبرك أن باب غرفتي بلا مقبض؟



فعلت ذلك كي لا يدخلها أحد عندما يزورني، أو ربما تكاسلت عن شراء مقبض إضافي، كما أن الغرفة لا ضوء فيها إلا المصباح الصغير إلى جوار الفراش، لأنني لا أحب الأضواء الكثيرة، ولأنها شقتي التي أسستها على مزاجي الخاص، فقد كانت حقا بهذه الكآبة والسواد.

فتحت الدولاب باحثًا عن مفتاح الباب الاحتياطي، كانت المرآة بداخل الدولاب وكان

انعكاسي فيها مظلمًا كما هو فالإضاءة خافتة جدًا، لمحت انعكاسي ثابتًا أثناء بحثي عن المتوقع، المفتاح، نظرت في المرآة سريعًا لأجده طبيعيًا، أعود للبحث مرة أخرى فيعود لمخالفتي!

تبينت في المرآة، أمعنت النظر طويلًا، فرأيت انعكاسًا آخر خلف انعكاسي، لا، لم يكُن انعكاسًا، بل كان ظلًا.

استدرت شاهقًا، مستعيذًا بالله من الشياطين، لم أجد شيئًا خلفي. عدت للبحث عن المفتاح حتى وجدته أخيرًا، تحسَّست طريقي إلى الباب، أحاول إدخال المفتاح في مكانه فأفشل تارةً ويسقط من يدي المرتعشة تارةً أخرى.

فجأة... سمعت صوتاً غريبًا، وكأن باب الشقة يُفتَح!

لكنني هنا بمُفردي! ولا يملك أحدًا مفتاح هذا المنزل سواي!

سمعت صوتهم يدخلون إلى الشقة، صوت خطواتهم أخبرني بأنهم أكثر من واحدة، كانوا كثر، دخلوا وجروا مقاعِد السُفرة جرًا، ثم تلي ذلك أصوات بدت وكأنهم يجلسون على المقاعِد تباعًا!

ازداد التصاقي بالباب رغمًا عني كي أتبين الصوت! قال أحدهم بصوتٍ لا يوصف، كأنه صوت محطة إذاعية مشوشة، لكنه كان قريباً لدرجة تشعرك أنه يتحدث في أذنك:



ماذا سنفعل به؟».

لم أصدق ما سمعت كتمت أنفاسي خوفًا من أن يعلم أولئك ، الأشخاص بمكاني، تحسَّست بقدمي فوجدت المُفتاح، أمسكته بين أصابع قدمي لكنّي شعرت به يسحب من تحت الباب إلى الخارج! ماذا يحدث هنا؟ بدأت أسئلة لا نهاية لها تعصف برأسي، شعرت بدماغي يغلي كالقدر، من هؤلاء؟ ماذا يريدون؟ هل سأموت هنا؟

قال آخر بصوتٍ لا يقل عن سابقه رُعبًا: «إنه يُنصِت السمع إلينا الآن، لابُد وأن يعرِف أنه أما هو وإما نحن في هذا المكان!».

فجأة... فُتح الباب، ووجدت نفسي ملقى على الأرض في الصالة، لكنها كانت فارِغة تمامًا، لم يكُن هناك أي شخص غريب بها، هرعت إلى الغرفة الأخرى، تناولت هاتفي وتناسيت قَسَمَ البارحة.

رد عصمت قبل أن يرن الهاتف حتى قال دون تردُّد: «إياك أن تخبرني بأن شيئًا مُرعبًا قد حصل معك أنت الآخر يا يحيى!».

كان صوته مرتعدًا ومهتزًا تمامًا كساقيّ... كيف عرف؟ هل رأى شيئًا هو الآخر؟ صرخت فيه بفزع: «تعالَ حالًا... حالًا»

قال: «أعطني عدّة دقائِق، لست ببعيدٍ عنك».

حمدًا لله أنه لم يعد إلى دمياط، فقد كان ساعات كي يصل إليّ.

بعد أن طلعت الشمس كنت قد أعددت فنجانين من القهوة وجهزت مكانًا للجلوس، وصل عصمت شاحبًا خائفًا، أخبرني انه لم يعد إلى دمياط، إذ أن سمسارًا كان قد طلب منه عصمت البحث عن شقة رخيصة يمكث فيها في الهرم، قد عاد وكلّمه يوم



أن عدنا من أسوان أراد عصمت الفرار أو التأجيل فالعودة من أسوان كانت مرهقة وتحتاج على الأقل يومًا للراحة، وافقه السمسار على ذلك.

قبل أن يتصل به السمسار مرَّة أخرى ويُخبره أنه يقف تحت شقته في القاهرة، ويطلُب منه أن يهبط ليُلاقيه من أجل الذهاب الرؤية الشقة حالًا.

وعلى الرغم من التساؤلات التي دارَت في رأسه عن سبب ذهابهما لرؤية شقة في ظلام الليل مادام يمكنهما الانتظار للصباح، حاوَل عصمت أن يُقنِع السمسار بالانتظار للغد، فالصباح رباح كما قال لكن السمسار قال بضيق: «تعالَ معي اليوم لأنني مشغول للغاية بُكرة، كما أن الشقة (لُقطة) ولا يُمكِن أن تنتظِر».

نزل عصمت من منزله ليجد السمسار في انتظاره بسيارةٍ بيضاء غير سيارته - البيجو - أمام المبنى، الأمر الغريب الذي لم يُدركه عصمت آنذاك هو أنه كيف لهذا الرجل أن يعلم محل سكنه في القاهرة؟ إنه لا يعلم سوى محل عمله!

سأله عصمت عن سيارته في تشكُّكٍ، فأخبره أنه مع زوجته، اقتنع بكلامه ولم يُناقِشه، ركبا السيارة وانطلقا حتى دخلا منطقة مليئة بالشوارِع الضيقة، بدا الأمر وكأنه يقود السيارة في ممراتٍ داخل البيوت، حتى وصلا إلى مكان أقل ما يقال عنه أنه مهجور.

منزل ضخم من طابقين في وسط اللا شيء، لا منازل هنا ولا بيوت هناك. تساءل عصمت من فوره: كيف سآتي إلى هنا من دون سيارة؟ ولن أسير يوميًا كل هذه المسافة فقط لأصل إلى الشارع الرئيسي».

أخبره السمسار أن لا داعٍ للقلق، فالتكاتك تملأ المكان في الصباح. لكن هذه الكلمات لم تكُن كافية لإقناع عصمت، بدت إمارات الرفض على وجهه كما تبدو الوحدة على ذلك البيت المهجور هناك. قال السمسار وكأنه قرأ أفكاره: « أعلم ما يدور بخُلدك، خذ مفتاح الشقة وانظر بنفسك، ستغير رأيك تمامًا بمجرَّد أن تراها من الداخل».



أعطاه المفتاح، وأخبره ان الشقة هي الأولى على يسار الدرج، سأله عصمت بدهشةٍ: «ألن تأتِ؟».

أخبره السمسار أنه سيجري مكالمة مع زوجته ليطمئن عليها وسيلحق به على الفور.

وصعد عصمت بمُفرده!

ولج من الباب المعدني الضخم ليأخذ الدرج الضيق، كان ضيقًت بشكلٍ لا يتناسب مع ضخامة المبنى على الإطلاق، ضيق وقذر ومليء بأسوأ الروائح وأنتنها، وصل إلى الباب وفتحه ثم دخل بيمينه وهو يسمّي الله أغلق الباب بقوةٍ شديدةٍ ،لكن هذا لم يُثِر دهشة عصمت ، فالهواء كان شديدًا بعض الشيء على الرغم من أن نوافذ البيت مغلقة بالكامل لكنه لم يُرد إخافة نفسه.

يُثِر دهشة عصمت، فالهواء كان شديدًا بعض الشيء، على الرغم أن نوافذ البيت مغلقة بالكامل لكنه لم يُرد إخافة نفسه.

أخرج هاتفه وفتح الكشّاف وبدأ يُطالِع الشقة، كانت واسعةً يحق، صالة مهولة المساحة، ربما تتسع لأربع قطع، دهانات الجدران مقشّرة، كان هذا طبيعيًا، عليها بعض الرسومات والأشكال والأحرف بالرصاص كأن طفلًا كان يلعب هنا، لا شيء يدعو للقلق.

حاول فتح أحد النوافذ لكنها كانت مُحكمة الغلق بالأقمشة حتى لا يتسلل التراب أو الحشرات. ولأن عصمت لا يحب الظلام كثيرًا؛ فقد عَزِم على إلقاء نظرة سريعة على الغرف والحمّام قبل الخروج.

أربع غرف كانت فارغة تمامًا، بنوافذٍ مُحكمة الغلق، إلا غرفة الأطفال، التي توسّطها فراش صغير يوشك على الانهيار، دخل ليلقي نظرةً خاطفةً، وجّه الكشّاف ليرى أن



الفراش ما عصمت يزال يحتفِظ بملاءته، كانت مهترئة ومهلكة؛ لكنّ ذلك لم يمنعه من تبين بقعة كبيرة داكنة اللون، بدت كبقعة دماء!

خرج سريعًا متجهًا للمطبخ كوجهته قبل الأخيرة، أثناء ذلك كان يلقي نظرات خاطفة على الجدران التي بدت ككراسة رسم طفل صغير يرسم عليها ويخط خطوطًا غير مستوية كيفما يشاء.

ألقى نظرةً خاطفةً على المطبخ، كان ضيقًا بالنسبة إلى حجم الشقة، لكنه أكثر من كافي لوجود كل الأجهزة الكهربائية، اتجه مباشرة إلى الحمّام الذي كان مغلقًا.

فتح الباب لتجف الدماء في عروقه بغتةً.

لم يكُن الحمّام خاليًا، كان يتوسط الحمام طفلًا ترتسم على وجهه ابتسامة لا تتبين هل هي براءة أم شر. شعر الطفل بخوف عصمت؛ فأزاح شعره الثقيل من على جبهته وهو يقول ببراءةٍ: لا تخف أنا ابن السمسار».

سأله عصمت عن كيف أتى إلى هنا دون أن يلاحظه، فأخبره الطفل بالبراءة ذاتها: أتت بي أمي إلى أبي بالأسفل، وعادت إلى البيت، فأخبرني أبي أن أصعد إليك ريثما ينتهي من إجراء بعض المكالمات الهامة».

بدا الأمر منطقيًا لوهلةٍ سادت لحظات من الصمت بينما كان عصمت يتظاهَر بمطالعة الحمّام، فجأة... سمع عصمت نهنهات بكاء من خلفه، نظر للطفل مرة أخرى ليجد أن ابتسامته اختفت واغرورقت عينا الطفل بالدموع وهو يقول: «لا يمكنك المكوث هنا طويلًا... هذا المكان.... هذا المكان ليس جيدًا، اذهب أرجوك اذهب ولا تعد إلى هنا مرة أخرى».



تسارعت الدماء في شرايينه عمل قلب عصمت كمضخة مياه تضخ الماء للطابق العاشر في أحد مباني القاهرة القديمة، ثم انقبض قلبه، وكأن أحدهم فصل الكهرباء فجأة عن تلك المضخة، أو أن الماء انقطع فلم تعد تجد شيئًا تضخّه.

شعر بأنفاسه تحاول الصمود، وكأن الهواء قد انتهى من المكان. خرج راكضًا كالمجنون من الحمّام متجهًا إلى الباب، لكن كانت هناك مُفاجأة في انتظاره، لم يستطع فتح الباب، نظر للخلف فوجد الطفل في قلب الصالة يشير إليه براحة يده وقد تعالى صوت بكائه كأنه يتألَّم: «افتح الباب واخرج، ولا... تعد.... أبدًا».

فُتِح الباب هذه المرة، والتفت عصمت للطفل قبل أن يخطو خطوة إلى الخارج، وسأله: «وأنت؟ ألن تأتِ معي؟».

صرخ الطفل بعنفٍ لا نراه في الأطفال عادةً : «لا... لا يمكنني الخروج من هنا».

ركض عصمت مدفوعًا بالرُعب بسرعةٍ تفاجأ من أنه يملكها، جاهد نفسه كيلا يسقط على الدرج، لم يكُن في مزاجٍ رائقٍ لتتهشَّم رأسه اليوم، ربما في يوم آخر، لكن ليس اليوم!

خرج من المبنى لا يفكر إلا في أن يهشم رأس السمسار بين مطرقة وسندان، لكنه لم يجد أحدًا.

لا السمسار ولا السيارة، ولا زوجته ولا أي شيء.

حاول الاتصال به لكن هاتف السمسار كان مغلقًا. غلي الدم في عروقه، تركه ذلك الرجل هنا في هذا المكان المهجور في هذه الساعة من الليل ورحل مغلقًا هاتفه.

ازدادت رغبته في تهشيم جسد السمسار كاملًا لا رأسه فقط. سلك الطريق المؤدية إلى الطريق الرئيسي، ظلَّ يمشي وسط نباح الكلاب وعويل القطط لنصف ساعة قبل



أن يجد توكتوك كان يشغل أحد المهرجانات بصوتٍ مفزعٍ. وكما بدا لعصمت فإن السائق الشاب تفاجأ بوجوده في هذا المكان، ركب التوكتوك خلف الشاب الذي بدا وكأنه خائفًا من عصمت، سأله عن سبب تواجده في هذه المنطقة المهجورة، أخبره أنه كان يبحث عن شقة للإيجار، نظر له الشاب من المرآة بارتيابٍ قبل أن يقول: لكن لا توجد هنا شقق للإيجار».

بدا الرعب يقفز من عيني عصمت فظن الشاب أنه فهم ما يجري فتابع قائلًا: «إيّاك أن تكون زُرت الشقة النحس!».

سُمع صوت ابتلاع عصمت لريقه من على بُعد مسافة أمتار كثيرة، وصلا إلى منطقةٍ آمنةٍ، تواجد فيها الكثير من المارّة، طلب عصمت من السائق أن يحكي له ما يعرف عن هذه الشقة. تردَّد السائِق قليلًا قبل أن تغلبه شهوة الحكي، فقال له أن رجلًا صالحًا اشترى هذه الأرض في منطقةٍ خالية من البيوت خشية الحسد، ولكنّه نسيَ أن المناطق الخالية من الناس لا تخلو بالتبعية من اللصوص.

فجاءه لص ذات ليلة فجمع ما جمع من البيت قبل أن يراه ابن صاحب البيت، خاف اللص أن يصرُخ الطفل فطعنه في فراشه، وأرداه قتيلًا.

لم يحتمل الأب المكلوم ما حدث فأخذ ما تبقّى له من أهله وترك المدينة، ولم يأبه أحد بالسؤال عنهم إلى الآن، لكنّ الكثيرون زعموا أنهم رأوا الطفل يبكي في شرفة البيت مُلَوِّحًا لمن يراه من المارة.

ولأن عصمت ذكيٌّ فَطِنٌ أسرَّ ما حدث معه، ولم يُبدِ أي أثار للرعب - إلا من عرقه الذي جعل من وجهه كمن انتهى للتو من الوضوء - وقرر بناءً على تلك المعلومات أن يتصل بالسمسار كي يمسح به أرض الشوارع الضيقة في تلك المنطقة، وفعل!

لكن السمسار أقسم له بأن ابنته في المستشفى منذ أيّام معدودة ولم يأتِ إلى المنطقة منذ مدة! إذا فمن ذا الذي أصطحبك يا عصمت قُبيل دقائق إلى ذلك البيت؟ وهل



يصدق سائق التوكتوك هذا في حديثه عن ابن صاحب البيت المقتول؟ فلماذا إذن أراد الطفل منه الخروج فورًا زاعمًا أن المنزل ليس آمنًا؟

عصفت كل هذه الاسئلة برأسي محاولة التدافع كي تخرج بالترتيب لتكوّن جملًا مفيدةً يفهمها عصمت الذي لم يسبق لي أن رأيته مرتعدًا بهذا الشكل. كانت أنفاسه تتوالى كخيل السباق، ترتعش يداه كمن ارتطم مِرفَقُه في سن الباب، سألته أخيرًا: بصفتك كاتب رعب شهير هل ترى تفسيرًا منطقيًا لكل هذا؟».

أجابني بعدما شرب نصف زجاجة الماء من جانبه: «ما رأيته في ذلك المنزل لم يكن الطفل، بل كان قرينه!». اتسعت حدقتا ا عيني وأنا أسأله بدهشةٍ: «قرينه؟».

فاستطرد مُستكملًا حديثه: «أجل، قرينه .... لم يمت الطفل ميتةً طبيعيةً، بل مات مغدورًا، فغضب قرينه لموته وعَلِق هنا حتى يقتصّ ممن قتلوه».

وبالطبع اندفع السؤال من دماغي: «لماذا إذن أراد منك الخروج بسرعةٍ؟».

أجابني بهدوء وكأنه يقول أمرًا عاديت: «لأنّه لم يكُن بمفرده في المنزل، بل كان هنالك شيء ما أقوى منه وأكثر فتكًا... كيان شرير ربما، أو حتى عفريت من الجن... فأخرجني منها حتى لا أدفع ثمنًا لا أطيقه على شيءٍ لم أفعله».

اعتدلت في مقعدي فأصبحت مواجهًا له وسألته بفضولٍ: «أي ثمن؟ وما شأنك أصلًا بالطفل أو بالبيت إن كان هنالك من قتله وهرب؟ وما شأني أنا بكل هذا؟».

أجابني وهو يشرب ما تبقى من زجاجة الماء: «سبب وجودي في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ.

فجأة... تحرَّكت عيناه لترمق شيئًا ما خلفي وهو يُتابِع حديثه قائلًا: يبدو أن كلانا متورطٌ فيما لا نطيق».



لم أفهم من كلامه شيئًا، استمرَّت عيناه في مُتابعة شيء ما خلفي، تابع كلامه قائلًا: «أنت تعلم كما يعلم الجميع أننا لم نُخلق فُرادى في هذا الكون، فلكُل إنسان قرين من الجن، والقرناء موجودون، يتحركون معنا يعيشون في منازلنا وتحت أسقفنا، تلمح أحدهم ربما بطرف عينك فلا تراه، أو ربما تجد محفظتك التي تركتها على المكتب، بجانب التلفاز، ربما تسمع أصوات فتح الباب دون تيار هواء، أو حتى قد تتطاير الستائر دون أن تفتح النوافذ، وقد تشعر أحيانًا بأن أحدًا يتحسّسك أثناء نومك يحدث هذا كله دون أن نراهم ولكن إن رأيناهم مصادفةً فلا يعد للألاعيب غاية، وحينئذٍ... يظهرون لنا».

قُلت بعصبية: «أنت تتحدَّث عن الأمر ببساطةٍ وكأنه... وكأنه لعبة!».

ابتسم وهو يقول: «هي فعلًا لعبة، وكُل لعبة في هذه الدنيا لابُد وأن يلعبها اثنين، حتى لو لعبت بمُفردك، فأنت تلعب ضد الحاسوب، نحن بالفعل وسط ،لعبة، وطرفها الآخر.. هو، وهذه اللعبة تحديدًا قواعدها بسيطة للغاية، طالما لا تعرف بوجوده... يستمر في محاولة لفت نظرك إليه، لكن عندما توقن بوجوده... تنتهي كُل القواعِد، ويحين وقت اللقاء، لم يعُد هناك داعي للاختباء بعد الآن أنت تعرف بوجوده، وهو يعرف بوجودك ... حينئذ يُعلِن عن وجوده بشكلٍ صريحٍ.

بلغ قلبي الحلقوم من الرعب عندما شعرت بأنفاس ساخنة على كتفي الأيمن جحظت عيناي حتى كادتا تقفزان من تقرهما، قال عصمت عدة كلمات متقطعة كانت كافية أن مسـ أعي علام كان ينظر خلفي: «يحيى... هل قلت لي أن الظل الذي أيقظك من مرقدك طويل، نحيل، يكاد يصل للسقف، وتتدلى ذراعاه حتى ركبتيه؟».

سألته بِرُعبٍ بالغٍ : «أجل، لكن... لكن كيف عرفت؟».

تنهَّد وهو يقول: «يحيى، أعتقِد أنه لابُد وأن تنظُر خلفك!».



كانت هذه هي اللحظة التي انغلقت فيها كل النوافذ، وانفجرت فيها المصابيح كافةً، حتى كدت أعلم هل ساد الظلام، أم أنني فقدت الإبصار، ولم يكُن الظلام وحده من انتشر، بل ازدادت حرارة الصالة وتعالت أصوات الحركة من حولنا.



(٩)

توقف الزّمن - أو هكذا ظننت - فلم أشعر حتى بنبضات قلبي، ولم تلتقط أذناي صوت أنفاسِ أي منّا، تسلَّل شعاع ضوء شجاع من بين طيّات النوافذ كأحد الجنود البواسل خلف خطوط العدو، فنجح في الوصول وأعطى الإشارة لأعيننا، سامحًا لها بالرؤية - وإن كانت طفيفة - لكنّها كانت كافية لرؤية الكراسي وهي تتخذ مواقعها ببطءٍ في مركز الصالة.

كانوا جالسين على مقاعِد السُفرة!

حدجت عصمت بنظرةٍ خاطفةٍ لعلَّي أتأكَّد أنني لم أفقد صوابي، فكان ثابتًا في موقعه فاغرًا فاه في دهشة تكاد تصل لحد البلاهة. حاولت تبيّن الهمهمات الصادرة من هذا الاجتماع السري المنعقد في صالة شقتي دون إذني لكنّي ما استطعت. أنبأني الصوت أنهم... يتناقشون في أمرٍ هامٍ.

أخذت بيمينه محاولًا سحبه نحو الباب، لكنّه جذي يده بسرعةٍ متمتمًا: كلّا لن نذهب إلى أيِّ مكان، هذه فرصة لا يدركها المرء مرتين».

فرصة؟ أيُّ فرصة تلك يا رجل؟ أتفهم فضول البشر في اكتشاف الغامض والمثير، لكن هذا؟ هذا لا يُفسّرُ على أنّه فضول! هذا درب من الجنون أو ربما عالم من العوالم



التي خلقها الله ولا نعلم عنها شيئًا! أتفهم رغبته في سبر أغوار اجتماع كهذا، لأنه سيكون مُفيدًا له في قادم رواياته، لكن أعتقِد - لست مُتأكِّدًا بصراحةٍ - أنه لابُد له وأن يكون على قيد الحياة كي يستطيع الاستفادة من الأمر!

احتدَّ النقاش، فجأة... قام الجميع من مقاعدهم ببطءٍ كأفلام القرن الماضي، نجح شعاع الضوء في إظهار عددهم، كانوا ثلاثة... ثلاثة ظلال فارعة الطول لا ملامح لها، تصل أياديهم حتى الركبتين تحركوا في اتجاهنا بالبطء ذاته؛ فتراجعنا خطوة للخلف.

سيطرت هالة من الطاقة المظلمة على المكان، استشعرت قشعريرة خوف سرت بجسدي كتيار كهربائي، وعلى الرغم من عدم وجود ملامح لهذه الظلال إلا أنني شعرت أنهم ينظرون إلينا، يتقدَّمون نحونا دون خطوات تراجعنا أمامهم حتى التصقنا بالحائط، وتعالى صوت أنفاسنا حتى صارت كصوت القطار.

توقف اثنان منهم عن الحركة، بينما استمر الثالث في التقدُّم حتى صار أقرب لنا منهما، تحدَّث بلغةٍ غير مفهومة، كأنه... كأنه يتحدث لغة معكوسة. حاولت الكلام لكنّي ما استطعت، ولكن عصمت قال بصوتٍ مُرتعدٍ: «نحن لا نفهم شيئًا مما تقول، وإنا لا نريد أن نؤذي منكم أحدًا، فانصرفوا آمنين واتركونا لحالنا دون أذى».

هذه شجاعة تُحسد عليها يا رجل حقًا، وأتمنى ألا تتحوَّل إلى حماقةٍ نندم عليها سويًا، أجابه الظل بهدوءٍ، بكلماتٍ مفهومةٍ هذه المرة، بقدر ما كانت تهُزُّ القلوب: » لا يسمح لنا باختراق عالمكم، ولا يسمح لكم باختراق عالمنا، نحن نراكم من حيث لا ترونا، ولا يجوز عكس الآية، أنتم دنس، ومن دنّس مكانًا فلا بد له من أن يُطهره، وإن لكم في الورقة لخلاصٍ حتّى حين».

لم تكد كلماته تنتهي حتى فُتحت النوافذ والأبواب بعنفٍ؛ فأغمضنا أعيننا حتى اعتادت على الضوء قليلًا، وبالطبع تتوقَّع ما رأينا، لا شيء!



لا كراسٍ لا ظلال، لا أثر لأي شيء حدث هنا لكزت صديقي بمرفقي في كليته لأجده غارقًا في أفكاره، سألته بفضولٍ غاضبٍ :

«فيم تفكر يا ،رجل هل فهمت شيئا مما قال هذا ال.....»

لم أعرِف بم أصفه، فأردفت: «هذا الشيء؟».

أجابني بخوفٍ فضحه ارتعاد صوته: «لقد أخطأنا يا يحيى، ربما لم نتعمّد الخطأ لكنّه قُدِّر لنا».

قاطعته بعنفٍ متسائلًا عن مقصده، فرد عليَّ بالنبرة ذاتها: «لقد دُنِّسنَا بذنبٍ ما، وحسبما فهمت؛ فلابد لنا من أن نطَّهر من الدنس، في ذلك خلاصنا».

صرخت به مستنكرًا: «وما شأني بكُل ذلك! أنت ملوَّث بدم علاء، أما أنا... لا دخل لي بأي منكم من الأساس».

ابتسم ساخرًا متجهًا للشرفة ثم أجاب: «ربما لم يكن لك ذنب في موت علاء والبقية، لكن من يدري ربما فعلت شيئًا في ماضيك ألقى بك في هذا الوضع معي».

تنهّد بعدها، بينما نظرت لانعكاس صورتي في زجاج الشُرفة. ربما أنت محق يا ،رجل، لكل منا ماضٍ ولولا ستر الله ما دامت حياة أحد منّا.

أنهى تنهيدته ثم أكمل حديثه قائلًا: «لابُد لنا أن نتعاون كي نتخلّص من هذه الورطة». ثم ذهب بناظريه إلى حيث كانت تجتمع الكراسي وسط الصالة، وتابع: «ومنهم». نظر لي قبل أن يسألني: «ما رأيك؟».

رأيي؟ هل تُريد أن تعرف رأيي؟ سامحك الله يا عصمت! ما شأني من البداية بكل هذا!



لم يكن هنالك من حلٍ إلّا أن أوافقه حتّى أعود إلى سابق عهدي، وتعود حياتي للسير كما كانت قبل كل هذه الهراء المُرعِب. سألته عمّا سنفعل، كُنت أعرف ردّه؛ لكني سألت من باب الاحتياط، أتَذكُر عندما قال الظّل أن خلاصنا يكمن في الورقة؟ تُرى أيُّ ورقة كان يقصد؟

سألت عصمت عمّا إذا كان قد خَلُصَ إلى استنتاج، فأجابني بالنفي كما توقعت . حسنًا إذا سنبحث في كل الورق في شقتي ورقة ورقة!

مرّ من الوقت أغلب ساعات النهار ، لم نترك ورقة إلّا وطالعناها، والنتيجة؟ لا شيء.

فحصنا كُل شيء، فواتير الكهرباء والماء، تذاكر القطار من وإلى أسوان، روايات (النيدلان)، و(أقسى من الموت)، و(عندما يعزف الشيطان)، كرّاسات مليئة بأفكار مشاريع ناشئة، رسومات بالفحم أظهر فيها وسيمًا، حتى أوراق الدعاية لمحال الفول والطعمية والصيدليات والبقالة، لم نترك شيئًا إلا وفحصناه.

قُلت بسُخرية: «وماذا الآن! ماذا سنفعل؟ لقد أصبحنا كعمال المطابع الرخيصة يفرزون الورق المستعمل آخر كل شهر كي يطبعوا عليه رواياتٍ مسروقة».

ضَحِكَ عصمت في حُزنٍ، فقد كان يعاني كما يُعاني أي كاتب مصري من هذا الأمر، بل وتطوَّر الأمر حتى تقلَّص : عدد المكتبات ودور النشر بفعل الخسارة التي تلحق بهم بسبب الكُتب المسروقة والمضروبة.

أعددت فنجانين من القهوة كي نُصفي أذهاننا، جلست على الكرسي الخشبي في الشرفة بينما استلقي عصمت على الأريكة وظلّ يتقلّب كسيخ الكفتة على الفحم.

خشيت على الأريكة، فنهرته بانفعالٍ مصطنعٍ: «ما بالك يا رجل! هل ترقد على قشر بيض أو ماذا؟».



اعتدل قائلًا إن ربما هنالك شيء قد نام فوقه على الأريكة، بحث قليلًا فوجد محفظتي المنتفخة لأنني سحبت بعض النقود قبل رحلة أسوان المؤلمة تلك.

ناولني إيّاها ناصحًا إياي ألّا أترك نقودًا كثيرةً في المحفظة؛ حتى لا يطمع بها الطامعون، فتُسرق منّي في المترو أو ربما يحدث الأسوأ.

تناولتها منه مهدئا إيّاه أن الوضع آمن هذه الأيام، غير أنّي لا أركب المواصلات العامة كثيرًا. أخبرته أيضًا أن المحفظة عادةً ما تكون منتفخة هكذا ليس لوجود النقود فيها بل لكثرة الأوراق التي أضعها فيها، فكما تعلم يا رجل، تبحر عشرات الأفكار برأسي فأحتاج أن اخرجها في قصاصات صغيرة، فتارةً فكرة أحد المشاريع التجارية تقفز إلى رأسي، وتارةً فكرة شركة ناشئة، وتارة فكرة أحد المقاطع التي أكسب منها عيشي.

اعتدل عصمت في مقعده ونظر إليَّ بنظرة استياء تبعها بقوله: «قصاصات ورقية في محفظتك أليس كذلك؟».

قلتُ بلى! تابع بذات النبرة والنظرة: «قصاصات ورقية في محفظتك، التي سقطت منك في المقابر، حيث كنا نهرب من ميتٍ عاد من الموت لينتقم ممن قتلوه، قبل أن يُعيدها إليك رجلٌ غامض لم نتبيّن وجهه في القطار!».

يا إلهي أبدو الآن غبيًا!

فتحت المحفظة باحثًا في القصاصات الورقية عن أيّ شيء غير ما سبق ذكره حتى وجدت هذه الورقة الصفراء التي بالكاد تتمالك نفسها قبل أن تتمزّق! هذه الورقة بالتأكيد لم تكن هنا قبل أن تسقط مني المحفظة في المقابر، أنا مُتأكِّد من هذا.

أخذ مني المحفظة بعنفٍ وألقاها على الأريكة بعدما أخرج الورقة منها، فتح طيّات الورقة ونظر فيها قبل أن تجحظ عيناه ويُفتح فمه حتى تكاد ترى حلقومه، سألته: «ما بك؟».



نظر لي ارتجف قليلًا، قبل أن يقول: «هذا عنوان الشقة النحس!».

***

توصلنا بعد مهاترات مع سائقي التكاتك إلى أنه لابد لنا من أن نذهب للشقة النحس

سيرًا على أقدامنا. بالفعل لقد أبى كل السائقين أن يوصلونا إلى مكانها فمنهم من قال: «الله الغني» أو «الجسد لم يعد يرحم»، أو حتى: «حد الله بيني وبين هذا المكان».

لذلك عقدنا العزم أن نتوجه إلى الشقة مترجِّلين، ولأن عصمت هو من سبق له القدوم، فكانت له بالطبع قيادة المسير.

وصلنا إلى ما يبدو مُنتصف الطريق، وسط أراضٍ زراعية تعلو فيها سيقان الذرة مُشكّلة مع ضوء آخر النهار لوحة زيتية رسمها أحد الفنانين العظماء في أربعينات القرن الماضي. اقترح عصمت أن نسلك طريقًا مختصرةً عبر حقول الذرة، فالطريق هنا منحنٍ وإن واصلنا السير فلن نصل إلا بعد الغروب.

بالطبع لم يكن عصمت يُصدِّق أن أحداث أفلام الرعب يُمكِن أن تحدُث لنا، لأنه لو كان فعل لكان علم أنه عندما تذهب إلى مكانٍ مهجورٍ مرعبٍ حيث يتوسط الطريق حقول الذرة، فلا يجب عليك أن تدخل الحقول على الإطلاق، بل التزم بالطريق المُمهدة. حسنًا، لكنه القائد، ولذلك لابد أن أتبعه.

في هذه الأثناء تتوهم أيُّ شيء حتى يلائم الجو العام، فحفيف الأوراق مع صوت صرصور الحقل ونعيق الغربان مع وقع أقدامنا واحتكاك الأوراق بأجسادنا شكّلوا موسيقى تصويرية تجعل الهادئ يفقد صوابه.



لكنّ ما رأيناه بعد ذلك جعل الخوف شعورًا بديهيًا، فها هي فزّاعة أو كما نقول في اللغة الدارجة «خيال مآتة» ينتصب في ارتفاعٍ عن الأرض، قذر الثياب، نتن الرائحة، وكأنه رجلٌ لم يعرف معنى الاستحمام لسنوات طوال.

على كلٍّ، لاحظ عصمت خوفي من هذه الفزّاعة فحاول كسر الملل بأن يقصَّ عليَّ قصةً مُرعبةً كان قد كتبها عن «خيال المآتة»، لكنها لم تُنشَر بعد تجاهلت ما يقول فتفهّم أنّي لست بحالٍ تسمح أن أستمع إلى أي قصص مرعبة، تحديدًا، ونحن في مكان كهذا.

استمرينا بالسير حتى شعرنا أننا نكاد نقترب، لكنّ الرائحة النتنة المُنبعثة من «خيال المآتة» هذا كانت ما تزال في الهواء، وكأنها التصقت بأنوفنا فلا نستطيع الهرب منها.

أبديت انزعاجي وتأففي، لكن كان تأفُّف عصمت كان أكبر بكثيرٍ، فقد كان يلتفت كل بضع خطوات ناظرًا للخلف باتجاه خيال المآتة، بدا عليه التوتُّر.

قلت بأنفاسٍ تجاهد التعب والرائحة الكريهة: «وتجرؤ على أن تؤلف قصة مُرعِبة عن خيال المآتة وأنت تخشاه بهذه الطريقة!».

لكن عصمت لم يأبه أو يلتفت لي بدا لي قلقًا على غير عادته، سألته عمّا ،به فأخبرني أنني لو كنت مهتمًا لعرفت من تلقاء نفسي!

يفاجئني كل مرة بقدرته العجيبة على المزاح السخيف وقتما يكون مرتبكًا أو خائفًا، سألته بعنفٍ عمّا يشغل باله، ويا ليته ما أجاب.

قال: «أظن أن..... أشار إلى خيال المآتة بأصابعٍ مرتعدةٍ وتابع: «أظن أن خيال المآتة يتحرك معنا».

تمالكت أعصابي، يا رجل، أيُّ خيال مآتة هذا الذي يتحرك! أخبرته أن يتمالك نفسه



ولا يستسلم لمشاعره، من الجيد أن أوجّه بعض النصائح الآن التي تبعث على الطمأنينة، لكنّه أصرّ على أن خيال المآتة يطاردنا، أو بتعبير أكثر دقّة: «يسير معنا خطوةٍ بخطوة».

أخبرته بضيق صبرٍ: «لا يوجد جماد يتحرَّك يا عصمت!».

فأخبرني بتوتّرٍ بالغٍ: «هذا في حالة أنه كان جمادًا من الأساس!».

أخرج هاتفه وهمَّ بتصوير خيال المآتة كي يثبت لي أننا لا نبتعد عنه، رفع هاتفه والتقط الصورة، ثم حدق في الهاتف لثوانٍ ونظرة من الرُّعب تعتلي وجهه، لم انتظر منه ان ينطلق بكلمة واحدة، فأخذت هاتفه لأطالعه بنفسي، وبالفعل كانت ردة فعله منطقية، لا يوجد خيال مآتة في الصورة!

نظرنا من خلفنا باتجاهه لنجده قد تدلى من العامود الخشبي، وأصبح قريبًا منا على بعد أمتار قليلة، وقبل أن ينطق أحدنا بشيءٍ انطلق خيال المآتة باتجاهنا راكضًا كالمجانين، فانطلقنا من أمامه بأقصى سرعة لا نعرف إلى أي اتجاه نذهب لكن الأهم أن نهرب من هذا الشيء. يا لهذا الحظ يا عصمت! تارة يطاردنا ميت والآن خيال مآتة!

بعد الركض لدقائق دون أن ينظر أحد منا إلى الوراء رأينا البيت يقترب أعطانا هذا بعض الطمأنينة فزدنا من سرعتنا ونحن راكضون حتى خرجنا من حقل الذرة سالمين لنقف لدقائق حتى نلتقط أنفاسنا . ألقيت نظرة على حقل الذرة فلم أجد أي أثر لخيال المآتة هذا وكأنه اختفى لحظة خروجنا من الحقل، قلت لصديقي وأنا ألهث عما إذا كان يفكر فيما أفكر فيه؟

هزَّ رأسه موافقًا لقد علمنا للتو أن أيا ما كان هذا الذي طاردنا، فقد أدى مهمته، ونحن الآن أمام البيت، وبينما ينفض كل منا ثيابه؛ سمعنا صوت فتح أحد الأبواب بالأعلى، بالتأكيد هذا باب الشقة النحس.



لم ينتظرني، فأشار برأسه أن نصعد السلم قبل أن يسبقني فتبعته صاعدًا السلم الضيق في هدوءٍ.

***

دخلنا من الباب المفتوح على مصراعيه وكأنه هُيأ لاستقبالنا، دخلت بقدمين مُتثاقلتين، عكس عصمت الذي بدا كمن يتجوَّل في بيته. يفتح الأبواب متنقلًا بين الغرف، بينما كنت أتفحص الرسومات على الجدران، بارع أنت في الوصف يا صديقي، فقد كانت الشقة تمامًا كما وصفتها.

شتت تركيزي صوت شهيق عصمت وفزعه الذي كاد يسقطه أرضًا، وعصمت ليس بالشخص السهل إرعابه، خرج من الحمام كما توقعت - طفل صغير بشعرٍ ناعمٍ ينسدل على جبهته، تراجع عصمت أمامه حتى استقر إلى جانبي، بالطبع أعلم ان هذا الخوف ليس طبيعيًا، فعصمت لديه خوف مرضي من الأطفال.

تقدَّم الطفل بخطواتٍ صغيرةٍ حتى أصبح يتشارك الصالة معنا، نظر الطفل إليّ مبتسمًا بهدوءٍ وقال: «كنت أعلم أنكما ستأتيان كان لا بد أن تأتيا».

حاول عصمت أن يتحدَّث، لكن لسانه لم يسعفه، تفهَّمت ذلك وشرعت بالكلام مع الطفل متناسيًا أنه قرين الطفل، لا الطفل نفسه. تقدمت خطوتين ونزلت على ركبتي اليسرى، تبسمت للطفل مخاطبًا إياه: «كيف حالك أيها البطل؟ لقد جئنا كما أردت أخبرنا الآن ماذا تريد مناه».

لم تكن تلك شجاعة مني أو رباطة جأش، لكني أيقنت أن هذا الطفل ضحية مسكينة لا عفريت شرير يريد القضاء علينا. تبسم الطفل ناظرًا اليّ ببراءةٍ كانت كفيلة أن تبعث الطمأنينة في النفوس قائلًا: «أريد الخروج من هنا». وأتبع ذلك بيأسٍ وخوفٍ يمزق الأفئدة: «لست وحدي هنا ... هنالك شخص سيء يعذبني!».



قلت وكأنني العبقري صاحب الألف نظرية: «إذا لماذا لا تهرب؟!».

عاد عصمت إلى الحياة مرة أخرى، قال ساخرًا: « وكأنها بهذه البساطة!».

أشاح الطفل بنظره عني متجهًا لعصمت، وقال له: «هل فهمت إذن ماذا أريد منكما؟ يبدو أنك أكثر خبرة منه».

اقترب عصمت مني ملاصقًا للجدار، ما زال خائفًا من الطفل، لكنه استطاع أن يصلب طوله على الأقل. بدأ يتنفس بانتظامٍ ثم استطرد في الحديث عن أشياء لا أفهمها: «أنت تعلم أن هذا ليس طفلًا، بل قرينه، لماذا برأيك يتواجد القرين في مكان القتل؟».

نظر إلى وكأنه ينتظر مني إجابة! كفاك بالله يا رجل لسنا في اختبار شفهي لأعمال السنة في مادة ميكانيكا الموائع! تابع عصمت قائلًا: « يتواجد القرين في حالة من ثلاث حالات فقط، إما أن الجثمان لم يدفن بالطريقة الصحيحة».

قاطعه الطفل بالبراءة ذاتها: «كلا لقد دفنني أبي إلى جوار جدي وجدتي».

شعرت بشيءٍ من الحزن، فليس من المعتاد أن ترى طفلًا يتحدث عن الموت، أكمل عصمت حديثه قائلًا: «فهو حل من اثنين إذن، أما أن الجريمة كانت بشعة لدرجة لا توصف، أو أن القاتل لم ينل جزاءه».

احمرَّت عينا الطفل وانتفخ وجهه لثوانٍ قبل أن يعود إلى طبيعته، أو عن طبيعته، كان هذا ربما مؤشرًا إلى السبب، فالقاتل مازال طليقًا يستهلك الهواء الذي من المفترض أن نستهلكه نحن الأبرياء، فقط.

نظر عصمت إلى الطفل بحذرٍ، يبدو أنه فهم مراد الطفل، سأله: «من فعلها؟».



احمرَّت عينا الطفل و أظلم وجهه وظل صامتًا لثوانٍ ساد فيها الرعب، شعرنا بنقيض البراءة التي شعرنا بها منذ دقائق وكأن طاقةً مظلمةً انبثقت من الطفل فشعرنا بها كوخز الإبر على الجلد، استمرّت هذه الحال ربما لعدة ثوانٍ مرت علينا كالدهر قبل أن يرفع الطفل رأسه باتجاهنا صارخًا بغضبٍ مُدمِّرٍ : «فتحي عبد العظيم».

انطلق تيارُ هواء ساخن يلفح الوجوه، كان كفيلًا أن يسقط كلينا أرضًا ويغلق الباب بعنفٍ. انطلقنا باتجاه الباب عسانا ندرك الهروب لكن لم يكن لهذا الهلع سبب، فبعد أن نظرنا للطفل لم نجد له أثر ، بالفعل أعطانا الطفل طرف خيط لإنهاء معاناتنا.

خرجنا من البيت بهدوءٍ، بالطبع ما كان ليحدث شيء أكثر مما حدث فنحن الآن في مهمةٍ أخلاقيةٍ لكي نعيد الحق لأصحابه، أليس كذلك؟ قطعا لا، ما أريد إلا انتهاء هذ الكابوس.

بينما نترجل على الطريق - بعد أن قررنا أنه لا سبب يدعونا لاختراق الحقل مرة أخرى، نظر إلي عصمت مازحًا «أين نجد فتحي عبد الوهاب هذا؟».

قلت ساخرًا: «في التلفاز أيها العبقري، أتذكّر سائق التوكتوك الذي أخبرك بقصة هذا البيت؟ لابد أنه سمع هذا الاسم من قبل».

وصلنا إلى أول الطريق بعد مسيرة دامت قرابة النصف ساعة، تبادلنا فيها بعض الأفكار قبل أن نجلس على أحد المقاهي القذرة التي من قذارتها يغسلون الأكواب بروث الماعز ربما، سأل عصمت أحد زبائن المقهى عن شخص يدعى: «وهبي عبد النعيم ربما، أو فتح الله عبد السميع».

أجابه الرجل: «أتقصد فتحي عبد العظيم؟ المجنون!».



اومأت برأسي بالإيجاب، فاستطرد العجوز: « ولمَ تسأل عن ذلك الصعلوك؟ تبدوان لي من طبقةٍ راقيةٍ لا ينبغي لأحدكما مزاملة أشباه البشر أمثال فتحي».

سألنا العديد من الناس هنا، سائقي التكاتك، رواد المقاهي لم نحصل على أي معلومة سوى أن فتحي هذا جُن جنونه منذ فترة. كنا لنفقد الأمل لولا أن رأى : عصمت سائق التوكتوك ذاته الذي حكى لعصمت قصة الشقة النحس دلّنا على أحد الأشخاص في المنطقة لديه مجموعة ورش صيانة وتهريب سيارات، أجابه عصمت مُتعجبًا: «خالد شكمان وكيف عساه يساعدنا؟».

هكذا كان ردُّ عصمت متعجبًا. أخبرته أن كل المجرمين يعرفون بعضهم بعضًا، ولا بد أن يكون شكمان هذا يعلم أي شيء عن لص قاتل مثل فتحي رحَّب عصمت بالفكرة على مضضٍ، يبدو أن تجربته مع من يمتهنون هذه المهنة لم تكن جيدة، لن أسأله عن شيء فلن أكون متطفلًا.

اتصل عصمت بخالد سائلًا إياه عن أخباره الاجرامية الأخيرة، وعن مستقبله الوظيفي في المهنة، ثم أعطاه اسم فتحي طالبًا منه أن يتقصى أثره. وبعد ثلاثة فناجين قهوة بطعم التراب، وخمسة لترات من ماء الصرف اتصل هذا الشكمان بعصمت، أعطانا عنوانًا لفتحي سأله عصمت عما إذا كان ينبغي أن يأتي معنا، أخبره أن فتحي ليس بهذه الخطورة منذ أن فقد صوابه، فهو يعيش وحيدًا في مبنى لم تنته فيه أعمال الانشاءات، لقد فقد صوابه فحسب وإن أردنا أن نخرج سالمين فعلينا ألّا نجعله يتشكك في أمرنا، نحن مجرد عابرا سبيل لا أكثر، وخلال دقائق كنا في سيارة أجرة متجهين نحو العنوان.

***

مبنى مهجور من السكان، شاهق ارتفاعه، لا تفهم إن كان لم يكتمل بناؤه أو لم يكتمل هدمه، كنا نستطيع العودة إلى المنزل والبحث عن فتحي في الصباح، لكن حرارة



الموقف أدّت بنا إلى أن نكون هنا في ساعات الليل، سألته بسُخرية: «حسنًا إذن من منا يقود عملية القبض على فتحي؟».

فأجابني بسخرية أكبر :«لا فرق، إما أن نخرج سويًا، أو لا يخرج أحد منا أبدًا».

سبقني عصمت بخطواتٍ على درجات السلم التي بالكاد تتسع لشخصٍ واحدٍ، مشققةً تظهر أسياخ الحديد من خلالها، دونما سور نرتكز عليه أثناء الصعود لذلك كان لزامًا علينا إضاءة كشافات هواتفنا لتُساعد المصابيح الصفراء رديئة الصنع التي تنتج حرارة أكثر مما تنتج من ضوء كي لا نسقط فنصبح من النادمين.

وصلنا للطابق الأول فلم نجد إلا قمامة ومخلفات بناء وفضلات كلاب وقطط. بذات الطريقة تحسّست أقدامنا درجات السلم صعودًا للطابق الثاني الذي كان مختلفًا عن سابقه، تنتشر علب الطعام المُعلَّب الفارغة والشعيرية سريعة التحضير هنا وهناك، بطانية تأخذ ركنًا كأنها سرير ومن فوقها ورق مقوى كأنه وسادة، كلها أثار وجود شخص يتخذ من هذا المكان بيتًا، لكن دون أن نجد الشخص ذاته.

رمقني عصمت بنظرةٍ دلّت على اشمئزازه من المكان قائلًا: هل أنت واثق من العنوان؟».

أخبرته أن هذا هو العنوان الذي أعطاه لنا خالد «كحة»، وقُلت إنه ربما قد يغدر بنا، لكنه أخبرني أنه لا يظن هذا، فله مع هذا الحثالة ذكريات تمتد لأكثر من عشرة أعوام.

وبينما يشرح لي عصمت أن شكمان لا يُمكن أن يغدر بناء سمعنا صوتًا هزيلًا يحاول إصطناع القوة يقول: «من أنتما؟».

نظرنا لنتبين مصدر الصوت، فالجرذان لا تصدر مثل هذه الأصوات عادةً، فوجدناه.



كان هزيلاً، نحيلًا، مقوس الظهر، رث الثياب، لا تكاد تتبين ملامِح وجهه من الشعر والقاذورات، حافي القدمين، تبدو عليه آثار سوء التغذية والضعف والهزال. سأله عصمت بهدوءٍ «أنت فتحي؟».

ظهر التوتّر عليه وهو يتحسّس ملابسه كأنه يحاول البحث عن سلاح بين طيات ثيابه المهترئة وهو يتلعثم بالسؤال: «من أنتم، شرطة؟».

حاولت استدراك الموقف قبل أن يشهر ذلك الغبي سلاحه بوجهنا، فقلت: «مهلًا يا فتحي، أي شرطة تلك يا رجل، انظر إلى صديقي عصمت، هل يبدو لك هذا بطن ضابط شرطة؟».

نظر إلى بطن عصمت؛ فاقتنع بأننا لسنا بضابطي شُرطة، لكنه ظل محافظًا على مسافةٍ بيننا ثم كرر سؤاله: «من أنتما إذن؟ وماذا تريدان؟ وكيف تعرفان اسمي؟ ومن دلكما على مكاني؟».

اعتدل عصمت في وقفته فصار مواجها لفتحي، اقترب منه خطوتين ونظر له مباشرةً في عينيه: «فتحي، أنت تعلم لم أتينا، وتعرف من دلنا عليك، أنت تعلم أنّه هو من أخبرنا بكل شيء».

انفجر فتحي باكيًا وسقط على ركبتيه مهيلًا التراب على رأسه، بدا كمن يعلم أنها نهايته: «كنت أعلم علم اليقين بمجيء هذا اليوم كنت أعلم أنه لا مفرّ منه، أنا مخطئ، وأستحق العقاب ولكن تالله لستُ المذنب الوحيد، صديقي الذي وسوس إليّ أن أفعل فعلتي التي فعلت وأصبح من النادمين، أخذ مني كل شيء وتركني هنا أحيا وسط الفضلات، بقايا إنسان تأكله أفكاره و تطارده ذنوبه، كنت أعلم بمجيئكم.... لكنّ أحدًا لن يقتلني أخبروه بأنني آسف، اعتذروا له نيابةً عني عسى أن تُشفى آلامي».

وقبل أن يفهم أي منا شيئًا واحدًا، انطلق ذلك المعتوه محملاً بدموعه باتجاه أحد النوافذ المحطمة ليقفز منها ونسمع صوت ارتطام عظامه الهزيلة بالأرض!



نظر عصمت إليّ دهِشًا، يلتمس مني تفسيرًا لما رأيناه للتو، لم أكن أقل منه دهشةً، بل تسمّرت مكاني واضعًا كلتا يديّ فوق رأسي متوجهًا ببطءٍ إلى النافذة المحطمة، اقترب عصمت معي كي يسترق نظرة خاطفة، لكنّ فتحي الذي قفز لتوه أمام أعيننا وسمعنا صوت تحطم عظامه لم يكن له أثر في الشارع!

نظر أحدنا للآخر في تعجبٍ، أيعقل ما نراه! أيُّ كابوس هذا الذي نحيا فكرت حينذاك أن أقفز لربما أتيقن من كون هذا كابوسًا أو حقيقةً، أفكار كثيرة عصفت برأسي كأمواج غاضبة وسط عاصفة رعدية تعصف بقارب شراعي بلا مجاديف، لم يقطع هذه الأفكار إلا صوت جاء من ورائنا: «أتبحثان عن شيء أيها الموتى؟».

كان هذا صوت فتحي.

***

متى أفيق من هذا الكابوس، لن يكون هنالك فارق بين إذا ما قفزت الآن أو قتلني ما تبقى من فتحي. كان فتحي حينها مختلفا، مزرق الوجه جافة عروقه، ترتسم على وجهه ابتسامة سخط وغضب تجعل القلوب تقفز من الصدور.

قال بصوتٍ شيطاني وهو يتحرَّك باتجاهنا بخطواتٍ غير ثابتةً: «يبدو أن من دلكم على مكاني لم يخبركم أنّي ميت منذ زمن».

كان يتحرَّك وكأن مفاصله مثبتة بالعكس، لم نستطِع أن نتحرَّك للخلف فنسقط من النافذة المُحطمة، ولا نرى سبيلًا للهرب من أمام بقايا فتحي. تابع المضي قدمًا دون أن يتوقف عن الحديث: انتظرت طويلاً أن يأتي أحد بمثل غبائكما كي أخرج من خلاله، انتظرت حتى أنني كدت أفقد الأمل».

اقترب حتى صار يبعدنا بخطوات قليلة، قبل أن يُضيف ساخرًا: «واضِح أنه لم يجد من هو أغبى منكما كي يُرسله إلى هنا».



ضحك ضحكةً شيطانيةً، رجَّت أرجاء المنزل المُتهالك، اقترب منّا مرّة أخرى، فقررنا أن ننفذ أقدم خطة هروب عرفتها البشرية، نفترق.

ركض عصمت يمينًا باتجاه الباب والسلم، بينما تلكَّعت لثانية قبل أن أركض يسارًا باتجاه اللا شيء، نعم! ركضت باتجاه زاوية حيث لم أجد مفرًا من فتحي الذي حاصرني في زاوية، يا ليتني قفزت من النافذة قبل أن أكون تحت رحمة هذا الشيء.

اقترب مني والشرر يتطاير من عينيه وترتسم على شفتيه ابتسامة لا معنى لها إلا انني أقف امام شيطان لا انسان، هل حقًا سأستسلم بهذه السهولة؟

رفع فتحي يسراه ليمسك عنقي كالميت يتشبث بطوق النجاة، حاولت الفرار من قبضته كالصياد الذي ذهب ليصطاد في الغابة فوقع في شركٍ معدني صلبٍ. بدأ الهواء ينفد مني، مازالت عيناي متعلقتين بالباب تنتظران طيف عصمت آتٍ لإنقاذي. مرَّت الثواني ولم يأتِ عصمت، وبدأت عيناي تفقدان الأمل، والهواء كذلك وصار من الصعب عليّ تركهما مفتوحتين أن عصمت لن يأت على كل حال، لن ألومه، ربما كنت لأفعل يبدو الأمر ذاته.

خاب ظني فيك يا عصمت مرة أخرى، لكن هذه المرة حمدت الله أن رجائي فيك خاب، عاد عصمت وصرخ مناديًا فتحي من خلف الباب المخلوع، لم يلتفت إليه فتحي، بل ظلّ محكم مخالبه في رقبتي التي كادت عروقها أن تنفجر من الدم ورد بصوت لا أنساه حتى الآن لا تستعجل دورك، فصديقك أوشك على الذهاب إلى عالمي».

هرول عصمت من خلف الباب وبالكاد رأيته، كان ممسكًا بعظمة تشبه عظام ساق الإبل أو الأبقار، وضع العظمة على ركبته ثم قسمها نصفين صارخًا بغضبٍ شابه الخوف: «هذا إن لم تذهب أنت إلى عالمك أولاً».



سقطت وفتحي على الأرض، حمدًا لله، فقد وجدت فائدة لعصمت، التقطت أنفاسي كالسمكة التي عادت إلى الماء، وتعالت صرخات فتحي ممسكًا ساقه ناعتًا عصمت بأقذع الشتائم، حاولت الوقوف والاستناد على الجدار المتهالك، تشبث فتحي بساقي كالأفعى وهو ما يزال يصرخ، تناول عصمت عظمة أخرى من جوالٍ خيشي كان قد وضعه بجواره، كسرها كسابقتها، وتعالت صرخات فتحي أكثر وأكثر!

لم يكف عصمت عن تحطيم كل العظام، كبيرها قبل صغيرها، أدركت حينها بعدما عادت أنفاسي لرئتيّ ما أدركته أنت الآن. بالفعل، هذا ما تبقّى من جسد فتحي الذي لم يُدفن بشكلٍ طبيعي، بل لم يُدفَن من الأساس، فرفض قرينه العودة إلى عالمه أكد لي عصمت ذلك، فقد رأي عظام فتحي ملقاة بجانب سلاح ناريٍّ متهالك، استنتج أن الرجل قضى على نفسه عقدة الذنب التي عاش بها بعدما قتل الطفل، لكن ماذا عن بسبب صاحبه الذي وسوس إليه؟

لا نعرف شيئا إلّا أنه يجب علينا الخروج من هنا بأسرع وقتٍ ممكن.

فكرّت أن نأخذ عظام فتحي المحطمة وندفنها بالأسفل لكنّي لا أذكر لمَ لم أخبر عصمت بهذا، يبدو أنه قدر فتحي، على كل حالٍ، فقد تركنا البيت يأنس بصراخ ما تبقى من فتحي، ماذا؟ أراك تتعجب عمّا إذا سمع أحدهم صراخه وجاء ملبيا نداء فضوله! حسنًا إذا، تلك مشكلته هو لا نحن.

***

عرفنا حينذاك ما يجب علينا فعله سنتوجه إلى الشقة النحس حيث الطفل ينتظر منا إشارة عودته إلى عالمه بعدما نال فتحي جزاءه ، كانت الشمس قد قاربت على الشروق، فاحمرت السماء بينما وصلنا حيث ينتظرنا الطفل المسكين، أو قرينه.

قال عصمت للطفل القلق بابتسامةٍ تُخفي أكثر مما تُبدي:



«يمكنك الخروج الآن».

أشار الطفل ناحية الباب قائلًا: «لا أستطيع الخروج إلا بعد أن تفتح لي الباب بنفسك وتأذن لي بالخروج».

وفعل عصمت ما طلب الطفل، لكنّه توقف لحظة بعد أن فتح الباب ناظرا للطفل سائلا إيّاه: «أتذكر أول مرة حين جئتك أنا وصديقي، صديقي ذلك أرسل لك معي السلام».

رد الطفل بابتسامة بريئة وهو يهرول متجها نحو الباب «بالتأكيد أذكره، أرسل له تحياتي وأشكره».

واختفى الطفل فور أن خرجت قدماه من الباب وكأنه لم يك شيئًا.

كان هنالك سؤالًا واحدًا يعصف برأسي، كيف ظلَّ قرين الطفل هنا لأن قاتله لم يأخذ جزاءه، في حين أن فتحي قد قتل نفسه متأثرًا بذنوبه! أليس هذا حقًا اعترافٌ بالذنب وتطهر منه؟ قتل نفسًا زكيّة بغير نفس، ثم أقتصَّ للطفل من نفسه، أرى أنه أخذ جزاءه بالفعل، لماذا إذا ظل قرين الطفل هنا!

«غبي! نحن حمقى!».

قطع عصمت أفكاري بصراخه بهذه الكلمات بينما يضرب الجدران بقبضته، سألته ماذا هناك؟ هل كان يفكر فيما أفكر فيه لتوّي؟

نظرت لعصمت فوجدت دموعه تنهمر بعدما انهار جسده على ركبتيه ساندا ظهره للجدار، حاولت أن أفهم سبب كل هذا الانهيار فخرجت كلماته كقوارب الصيد الصغيرة المتأرجحة بين أمواج البحر في ليلة عاصفةٍ: «ألم تفهم بعد؟ لقد جئت هنا



أول مرة وحدي، لم يكن معي أحد، لا أنت ولا السمسار ولا صديق ولا حبيب ولا غريب، هذا الشيء الذي خرج ... ليس الطفل الذي رأيته أول يوم ها هنا».

بالفعل، هذا ما ظننت منذ ثوان، ما ، سـ اعدنا في إخراجه من هذا البيت لم يكن طفلا ولم يكن حتى قرينه، ما الذي فعلناه يا رجل، وما كان شأني بكل هذا!

تثاقل رأسي وبدأ لساني بالتلعثم، ناديت عصمت فوجدت رأسه يترنح شعرت بالظلام ينتشر ، ربما كانت عيناي تغمضان ولم أستطع فتحهما، وكأن شيئا ما ... قوة ما... غمرتني بشيء من النعاس والكسل، نظرت لعصمت فوجدته قد استقر على الأرض نائمًا، ووجدت نفسي أضع رأسي على كتفه.

استيقظت رافعًا رأسي من فوق كتف عصمت، لم نكن في عصمت الشقة النحس، بل كنا في صالة شقتي أنا أيقظت . سألني إن كنت رأيت الحلم نفسه، لم يحك أحد منا للآخر ما رأى، لكنا كنا نعلم أننا رأينا كل شيء سواء.

اعتدل عصمت من مرقده مفسرًا لي أن ما حدث هو مُجرَّد توارد أحلام، يحدث عادة للأشخاص الذين يعيشون تجارب عديدة معًا، مال قلبي لتصديق هذا التفسير قبل أن ينتهي عصمت من فرك عينيه ثم حدق في وجهي.

أخرج هاتفه فاتحا الكاميرا الأمامية ووجه هاتفه في وجهي، رأيت أثار أصابع حول رقبتي!

قال: «لو كان ما عشناه حلمًا ، فهل لديك تفسيرًا لذلك؟».

كانت تلك آثار أصابع فتحي.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أهمس: «لم يكن حلمًا... سامحك الله يا عصمت!».



(١٠)

كانت هذه كارثة!

أي كيانٍ هذا الذي حرَّرناه من البيت إن لم يكن قرين الطفل! هل كان شيطاناً أو ربما الكيان الشرير الذي كان يؤذي الطفل، لا نعلم أي شيء إلا أن عصمت زجني في هذه الدوامة زجا، ما كان ينبغي لي أن أسافر معهم من البداية في رحلة المركب هذه!

قُلت له: «عصمت، أنت تعلم كم أقدّر صداقتك، لكن صدقني د اكتفيت، يمكنك أن تمسح رقمي وتحظرني من جميع حساباتك على مواقع التواصل ، لا أريد معرفتك مرة أخرى».

لم يكلِّف نفسه عناء النظر إليّ، بل اكتفى بأن فتح الشرفة ودخل متكئًا على السور المعدني قائلًا: «نحن في هذا معا، ربما لم يكن لك يد في قتل علاء، لكنّ قدرك ساقك إلى المركب يومها كي تشهد ما شهدت... سأعدُّ لنا فنجانين من القهوة الغالية التي تنفق كل نقودك عليها».

قالها بينما يبتسم محاولًا كسر حدة نظراتي الغاضبة، تباعد حاجباي المقطّبان عن بعضهما قليلًا، فكرت في كلامه مجددًا، لديه الحقُّ كله، لكن ما كان ينبغي أن أشهد كل هذا.



جلسنا نرتشف القهوة من الفنجانين بصوتٍ عالٍ يغطي على صوت المثقاب الذي يستخدمه أحد جيراني المزعجين، عصفت برأسي أسئلة لا تُعد ولا تُحصى لكزني عصمت بقدمه في ساقي كي انتبه له سائلًا إيّاي فيمَ أفكّر.

قُلت وأنا ألعق أسناني من أثر القهوة: «لا أعرف يا رجل، كنت أتساءل عما قاله فتحي قبل أن يقفز من النافذة، يختلف كلامه كثيرا عن كلام سائق التوكتوك حسب ما أخبرتني».

أومأ برأسه موافقا إيّاي، بالفعل لم تكن القصتان مترابطتان فحسب كلام سائق التوكتوك أن أحد العاملين لدى صاحب البيت همّ بسرقته وقتل الطفل، بينما قال فتحي أنّه استجاب لوساوس صديقه، توصَّلنا بعد مناقشات عدّة إلى إن هنالك من خدعنا، هناك من أرسلنا لفتحي بالخطأ لحاجةٍ في نفسه لا نعرفها.

قال عصمت وهو يضع فنجان القهوة على السور: «إجابة اسئلتنا ستكون عند شكمان».

وقف مُشيرًا لي أحذو حذوه، تبًا يا رجل، لقد أهلكتني كل هذه المشاوير هنا وهناك.

***

لم يمر من الوقت الكثير حتى كنّا في ورشة شكمان، جلس أمامنا واضعًا ساقًا فوق الأخرى بغطرسة تراها في أغلب الفنيين في مصر، متلذذا بالشيشة في فمه كالطفل الذي يمسك (اللوليتا).

وبعد أن أخبرناه بالقصة كاملة أخذ نفسًا عميقًا محملاً بسموم الدخان ثم نفثه في الهواء مجيبًا: «حسنًا إذن يا رجال لقد جئتموني صرحاء، ولن أكون معكم أقل صراحة، عندما جاءني أحد الصبية قائلا إن رجلين يقفان في الموقف يسألان المارة والسائقين



عن الشقة النحس زاعمان أن خيال مآتة كان يطاردهما، فأرسلكما إليّ. هل تعرفان السبب؟».

نظرنا لبعضنا بعضًا بضجرٍ، وتحرّك رأسانا في تساؤل: «لماذا يا شكمان؟».

استطرد كعادة أغلب العاملين بالحرف في مصر: «ربما لن تصدقاني... لكنّي ما كنت يومًا رجلًا مشاغبًا، بل كنت من عائلة يحسّب لها ألف حساب، قبل أن أضل طريقي بسبب الصحبة الفاسدة، لو لم تُصدّقني، انظر في وجهي وستعرِف».

لم أبتلع هذه الترهات فقاطعته» صادق بالتأكيد يا شكمان لكن يبدو أنك بحاجة لمناقشة هذه الأمور مع وجهك أولًا حتى يصدقك».

ضحك شكمان حتى ابتلع الدخان، ثم أكمل كلامه: «كنت لأتخذ معك موقفًا سيئًا بسبب هذه الطرفة، لكنك أدخلت بجيبي نقودًا أحتاج من الأيام عشراً كي أعدّها».

نظرت وعصمت لبعضنا بعضًا لم نفهم شيئًا مما قال. فاستطرد شكمان مستمتعًا بكونه قائد النقاش الذي صار خطبة لا مناقشة: «كما تعلمان فما واجهتموه في البيت المهجور يُدعى فتحي محمود عبد العظيم واسمي ليس خالد شكمان بالتأكيد، بل خالد رضا عبد العظيم، بلى... هو ابن عمي - لا سامحه الله - كان هجّامًا من أولئك الحثالة الذين يسطون على المنازل في ظلام الليل باحثين عن أموال سهلة، وكعادة الحثالة من العصابات دائمًا ما يختلفون سويًا».

جذب نفسًا من الشيشة، أطلق دخانه في الهواء قبل أن يقول:

«ذهب فتحي مع صديق له إلى بيت زميل لهم محاولين تلقينه درسًا، لكنهما فشلا فشلًا ذريعًا وهربا، اختفى صديق فتحي الذي أشار له من البداية بالخطة، عاد فتحي قليل الحيلة إلى بيت العائلة ليحتمي بحضن والدته، كان غبيًا - لا سامحه الله ولا



جازت عليه الرحمة أبدًا - جاءت العصابة مطالبين العائلة - بتسليم فتحي الغبي بدلا من أن يقتلوا كل من في البيت».

هزَّ رقبته بقوةٍ فتعالى صوت طقطقة فقراتها قبل أن يستكمل حديثه: «وهكذا فعلوا ، تركت العائلة البيت واختفوا عن الأنظار، متمنيين لفتحي دوام التوفيق فيما هو مقبل عليه، أخذت العصابة فتحي إلى طابق لم يكن مسكونًا في البيت وأردوه قتيلًا برصاصة في الرأس، وتركوا جثته ليأكلها الطير».

قاطعه عصمت بأننا وجدنا هنالك بقايا طعام وشراب ومعلبات وأثار وجود شخص كان يعيش هناك، ضحك شكمان مستهزنا بأن هذا لم يكن إلا أحد الدراويش المشردين، لا شأن له بفتحي، قبل أن يستطرد: «كنت الوريث الشرعي الوحيد لهذا البيت، وعُرض عليّ فيه مليونا جنيه، وبسبب ما رأيتموه هناك لم أستطع بيعه، لذلك كان لابد لي من التخلص منه».

قاطعه عصمت : «مهلًا! أتقصد أنك أرسلتنا إلى هناك قاصدًا أن نقضي لك على فتحي؟».

هزّ رأسه بالإيجاب، فأكمل عصمت: «وماذا لو كان هو من قضى علينا!».

أجابه ساخرًا: «هذا قضاء الله يا رجل، أتعترض على قضاء الله! ولا تنسَ أنني بحثت عن اسميكما، فوجدت الأول كاتب رعب مرَّ بالكثير من التجارب مع أسيادنا، والآخر لديه من يتابعونه وسيقفون خلفه إن حدث مكروهة له، فقلت لا ضير في أن يكتب الله لكما ثواب إدخال السرور على قلب رجل مؤمن».

كنت جالسًا وقتها أتساءل كالعادة عن سبب كل هذا، لو لم ألتق بعم جابر ما حدث أي من هذا ... وقف عصمت من كرسيه الضيق مشيرا بسبابته في وجه شكمان: ولكنك ضحيت بنا، ولنا عليك حق أن تدلنا على أي شيء يخرجنا من هذه الدوامة...



يجب أن نعرف من الذي أخرجناه من البيت قبل أن نكون سبباً في مصيبة أخرى بسببك انت وفتحي هذاء».

ابتسم وهو يقول: «سأخبرك... سأخبرك بكل شيء».

***

بعد ما يقرب الساعة كنّا أمام منزل طبيعي تمامًا، ليس مهجورًا ولا تنبعث منه روائح كريهة ولا يقف خيال مآتة على بابه، لا شيء... بيت عاديٌ تمامًا. أخبرنا شكمان أن هذا يسكن الحاج سالم الطحان آخر من تبقى من عائلة الطحان التي اشتهرت في المنطقة قبل خمسين عامًا، كما أخبرنا أيضًا أن البيت الذي زرنا الشقة النحس فيه لم يكن بيتًا من الأساس، بل كانت الأرض ملكًا لعائلة الطحان، التي امتلكت حينذاك مصنعًا هو الأول في المنطقة، مصنع الطحان.

بإرشادات حارس البيت عرفنا أن الحاج سالم يسكن في الطابق الرابع أمام المصعد المعطل، صعدنا السلم حتى وقفنا أمام الباب، أخذت الخطوة الأولى وطرقت الباب ليفتح لي رجل بلغ من العمر ثلثه الأخير: «أدخلا، أخبرني شكمان بقدومكما».

كانت الشقة مظلمة كظلام القبر، يدخل فقط شعاع من الشمس من بين فراغات النوافذ ليساهم في جعل البيت أكثر رهبة، أضاء العجوز النور واعتذر عن عدم مقدرته على صنع لنا أي شيء نشربه لأن البيت فارغ من كل شيء مشيرا إلى السقف في آخر الطرقة.

نظرنا لنجد مشنقة تتدلى من السقف ومن تحتها كرسي صغيرا! نظر أحدنا للآخر في ترقب قبل أن يخبرنا العجوز أنه وضع المشنقة لنفسه، لعله ينهي كل شيء يومًا ما.



نحّى العجوز عكّازه جانبًا قبل أن يجلس في كرسيّ عتيق واتخذنا من كرسيين أمامه لنا مقاعدًا. تفحص الرجل وجوهنا قبل أن يبدأ حديثه: «أخبرني شكمان أنكما ذهبتما إلى أرض عائلتي... لا أظنها كانت تجربة ممتعة لأيٍّ منكما».

***

كان الطحّان الأول رجلٌ فقير تعيس منحوس، امتهن كل المهن فلا فلح في شيء ولا أحبّه أحد، وما قبلته امرأة تقدم لخطبتها، ولا ربُّ عملٍ عمل لديه إلا لقليل من الوقت، فانعزل عن الناس إلا قليلا منهم أخبروه أن مولد الغجر سيقام في قريتنا بعد أيام معدودات، وأن ساحرة غجرية تفك الأعمال وتزوج العانس وتحبّل العاقر وترد المُطلقة وتجلب الحبيب والرزق فاستجاب التعس لهذه المغريات، وقرر انتظار المولد، فهذّب لحيته وشعره، وارتدى آخر ما كان يمتلك من الملابس النظيفة، فماذا سيخسر صاحبنا إن كان لا يملك شيئًا؟ حياته؟ لا بأس، فلم يكن لها قيمة من الأساس.

جاءته الغجرية وأثنت عليه، أخبرته أن جنية تعشقه، تريده لنفسها دوناً عن بنات بني آدم، وعدته الغجرية بتخليصه منها وبسعة الرزق وحسن الطالع شريطة أن يتزوجها. لم يعلم أحد إلى الآن لم اشترطت الغجرية عليه الزواج، فلقد كانت فائقة الجمال، تضيء الظلام إذا تبسمت، يخسف البدر إن كشفت وجهها، يذوب أعتى الرجال فقط إذا سمعوا لها صوتًا ويهيم لها الرجال والعجائز إذا رأوا خصلة من شعرها الأشهب.

ربما أرادت أن تستخلصه لنفسها، فسلطت عليه جنية عاشقة لحاجة في نفسها لا يعلمها إلا الله.

على كلٍ، استجاب لها وكيف عساه ألا يستجِب! نفّذ كل ما أمرته به وهي أمور لا داعي لذكرها هنا كيلا يقوم أحد بتقليدها، لكنّه فعل ما فعل وانتهى به الأمر كسراجٍ منير،



وكأن قامته ازدادت طولًا، وصدره زاد اتساعًا، عاد الشعر الأسود ليسد فراغات رأسه، فتزوج منها.

كانت أولى النساء التي يمسّهن، لكنه لم يكن أول الرجال، كان لها ابن صغير من رجل لا تحب ذكر اسمه، أخذه معه في مكان لا تعرفه الغجرية، بحثت عن فلذة كبدها طويلا فلم تجد له أثر، سلطت الجن والشياطين للبحث عنه دون أن تعود بشيء يشفي غليل صدرها.

عاد الطحان للعمل بعد زواجهما في مطحن للقمح لذلك بعد سمي بالطحان، تبسّمت الحياة في وجهه، فامتلك المطحنة شهور معدودة، تبسّمت الدنيا أكثر وتزينت فافتتح فروعا عديدة، وزاد الرزق حتى حكي وتحاكي الناس عن كرمات الغجرية التي اعتزلت السحر بعد أن أنجبت منه فتيانًا أشدّاء، قرر الرجل أنه لابد وأن يبدأ في التصنيع، اشترى قطعة أرض صالحة للبناء بين الحقول التي كان قد اشتراها من قبل، يزرعها قمعا حينًا وذرة حينًا أخرى، وافتتح الطحان مصنعه وذبح البهائم وقدم الولائم والعزائم، وتحوّل من صعلوك لا يقبل به أحد، إلى رجل يتمنى الجميع فقط لو يمروا من جواره.

جاءته زوجته بعد أن فرغ البيت عليهما، فالفتية كبروا ويعملون مع والدهم في مصنعهم، طلبت من بعلها أن تعود للعمل مرة أخرى، عاهدته بألا تمارس السحر، ستفك الأعمال فقط. وافق الطحان على مضض، لم يبتلع كلماتها بسهولة لكنه كان يعلم أن فضلها عليه كان عظيمًا.

وكعادة أهل القرى، انتشر الكلام كما تنتشر النيران في قش الأرز، الطحان يترك امرأته تعمل بالسحر بين الناس، نهرها عما تفعل، فاشد النقاش بينهما حتى سمع كل أهل القرية بالشجار ودوّى صوت الغجرية في سماء القرية صارخة: «أنا من جعلت منك رجلًا، وأنا من ستحرق قلبك على ما أعطتك».



واختفت الغجرية تاركة خلفها كل شيء، حتى أولادها من زوجها، تركتهم جميعًا... إلى أن جاء ذلك اليوم.

كنت صغيرًا حينذاك، لا أذهب للمصنع كما كان يفترض بي أن أفعل، بل كنت أذهب للعب الكرة مع فتيان القرية من دون علم أبي، انطلقت النيران في وضح النهار من لا شيء لتلتهم كلّ شيء، المصنع والبيت والحقول.

جعل الدخان من الظهر عشاءً، وارتفعت ألسنة اللهب حتى كادت تلامس السماء، ورأي الجميع ظلالًا تخرج من بين الدخان لا تدري إن كان دخانًا أم كان شيئًا من أثر الغجرية.

استمر الحريق لأيام دون أن يقدر أحد على إخماده، حتى ما عاد شيء ليحترق، فكل شيء صار رمادًا، كومةً هائلةً من الرماد، لا تتبين من منهم أبي وإخوتي، ومن الخشب والأعمدة والمحصول... كلٌ سواء، كلٌ رماد.

كبرت وأنا أرى وأسمع عائلتي تصرخ مستنجدة بي كل ليلة، أزور الأرض كل يومٍ لأقرأ الفاتحة على أرواحهم، فأسمع أصواتهم يصرخون، تارة أجد جثثًا متفحمة لشباب القرية سيئين السمعة، وتارةً أخرى أجد جثث كلاب ضالة دون أسباب.

بعثُ الأرض زاهداً فيها حالما بلغت السن القانوني، وحتى اليوم ما زلت أراهم كل يوم في كوابيسي وهْم يصرخون وسط النيران المستعرة طالبين منّي أن أساعدهم.

فما عُدت أنام، بل أصبحت أهرب من النوم كما يهرب الفأر من القط علّقت المشنقة لعلّي استجمع قواي وأغادر الدنيا غير مأسوفٍ عليَّ.

***

انتهى الحاج سالم من قصته، لكن شيئًا ناقصًا لم يذكره، ما دخل كل هذا بنا؟



أردنا سؤاله، لكنّ عصمت فضّل أن يحكي له كل ما حدث منذ أن دخل البيت النحس نظر لنا الرجل بهدوءٍ قبل أن يعقّب: «لقد أخبرتني كل شيء لكنك نسيت شيئًا واحدًا، أن لا أحد يزور البيت صدفة، البيت ناداك وانت لبيت النداء».

تعجب عصمت وأردف متسائلاً: « ولم قد يناديني البيت؟ لا يربطني به أي شيء على الإطلاق».

أجابه الحاج سالم ببساطة أن لا أحد يعلم سبب مناداة البيت له إلا الشخص نفسه، فعصمت وحده من يعلم ما يريد البيت منه أو بمعنى آخر، ما يريد أهل البيت منه، أحياء أو أموات.

هنا أدركت القصة كاملةً، ما جاء سمسار لعصمت ولا ذهب، بل كان هذا نداء البيت، ولبّى صديقي النداء دون علمه، لكن هذا فقط ما عرفته، بحر عاصف من الأسئلة مازال يموج في رأسي. سألت الحاج سالم مباشرة: «ماذا عن الطفل؟».

أخبرني أنه . مسـ كين، محبوس مع بقية عائلة الطحان في البيت دون حول ولا قوة له أو لهم. وبمجرد أن انتهى من حديثه، حتى تابعته بسؤالٍ آخر: «ماذا عن الكيان الذي يؤذي الطفل؟».

أخبرني أنه عمل فاسد لأحد الناس المحبوسين بداخل البيت يُسلّي وقته بالتلاعب بأضعفهم صاح عصمت فجأة: وماذا إذا عن ذلك الذي أخرجناه من البيت!».

لم يتوتر الرجل أبدًا ولم يُبد أي امتعاض، بل كان متعاوناً لدرجة يُحسد عليها، أخبرنا أن ما أخرجناه هو عملنا الفاسد شرور أنفسنا، أو ربما شيطان أحد منّا كلامٌ يصعب علي فهمه لذلك أرفض تصديقه: أعتذر منك يا جدّي، لكنّي أراك رجلا بلغت أرذل العمر، وبينك وبين الموت خطوات إلى المشنقة التي نصبتها لنفسك، لماذا أصدق حرفًا مما تقول؟ أيُّ عمل هذا الذي تخبرنا به عمل فاسد وعمل صالح، تارة تخبرنا بشياطين وظلال، وتارة بقصص تراثية لم نقرأ عنها في أي مكان».



لكزني عصمت كي أتوقّف عن مهاجمتي للعجوز الذي ضحك قائلًا: «اترك صديقك يفرغ ما في قلبه من سخطٍ، يبدو أن ما خرج من البيت كان عملك أنت أيها الشاب، فلديك سخط وغضب يبتلعان أمةً كاملة».

تابع الضحك ثم عاد ليكمل: «لا تنسيا أيّها الشابان أنني ابن ساحرة غجرية تسخر الجن والشياطين، وأنني أصغر إخوتي الذي ظل طوال سنواته الأولى مرافقًا لأمه».

قال عصمت «أمك؟».

نظر له الرجل في دهشة، شعر عصمت بالحرج وهو يقول: لا ليست سبَّة، أسألك عن والدتك، أين هي؟».

تعجَّب الحاج من جرأة السؤال، لكنه أخبرنا أنه لا يعلم لها طريقا، بالتأكيد ماتت قبل عقود بعد أن تركت القرية معاودة البحث عن فلذة كبدها المفقود

سألته عن أيّة دلائل نستدل بها في بحثنا لعّلنا نفهم سبب مناداة البيت لنا، سكت قليلًا وهو يطالع المشنقة ثم قال: «ابحث عن ابنها، غالبًا ما زال على قيد الحياة، لا أعرف عنه إلا أنه يعمل صيادًا على أحد القوارب، ماذا كان اسمه؟ آه، اسمه جابر، جابر المراكبي».



(١١)

ارتسمت الخيوط كاملة أمام أعيننا، عاد كلُّ شيء لنقطة البداية، عمّ جابر الذي عقد صفقة مع أحد الشياطين ليفدي ابنته بعشرات الشباب، صاحب القارب الذي ذهبنا لقضاء نهاية الأسبوع فيه لنشهد موت علاء ومن بعده البقيّة ابن الساحرة الغجرية التي قتلت عائلة الطحان، باع سالم الطحان الأرض لرجل ثري، قُتل ابنه عندما رأى لِصًا في منزلهم، استدعانا قرناء عائلة الطحان لنصل إلى الغجرية مرة أخرى، لكي يأخذ القاتل جزاءه.

نام كلٌ منّا في الطريق، لم ننم نومًا هنيئًا منذ فترة لا نذكرها، وصلنا حيث ترسى كل القوارب، سألنا على عم جابر ليخبرنا البقية أن الرجل اختفى منذ فترة ليست بالبعيدة، يعلم الجميع عصمت في هذا المكان، فهو من دمياط بالأساس، ناهيك عن انه أحد زبائن المرسى منذ زمن بعيد.

أخذنا عنوان بيت عم جابر أخبرنا زملاؤه أن زوجته ظلت تبحث عنه لفترة قبل أن تنقطع عنهم أخبارها، رأى الجميع أن لا ضير من أن يدلونا فنحن أصحاب مكان، خاصة بعدما أخبرهم عصمت أن عم جابر كان لديه حساب متأخر معه، فأراد الرجل أن يرد المال لزوجة عم جابر ليساعدها في شؤون المعيشة.

قرية صغيرة أتيناها من أبوابها، تسمى عزبة الصيادين، يسود الفقر والبساطة عليها كعادة أغلب القرى المصرية، تنتشر رائحة السمك من السوق التي تجعل بطنك تقفز من فمك. تتبعنا وصف الرجال في المرسى حتى وصلنا لبيتٍ صغيرٍ قديمٍ مبنيّ من الطوب اللبن. طرقت الباب ناظرًا لعصمت الذي كان يتفحص المكان من حولنا كعادته التي اكتسبها مؤخرا، فالرجل أصبح مهوسًا بأن يهاجمه شيء من حيث لا يحتسب.

طرقت الباب ثلاثًا قبل أن تجيب امرأةٌ من الخلف، كانت أحد الجيران تخرج رأسها من شرفة صغيرة الحجم بالكاد تكفي أن تقف فيها هذه العجوز.

سألتنا بفضولٍ: «ماذا تريدان أيها الفتيان؟».

أخبرناها أننا نبحث عن عم جابر، أخبرتنا أن الرجل مفقودٌ منذ فترة ولا أثر له نصحتنا بالرحيل لأن أهل الريف لا يحبون الغرباء كثيرًا.

اصطنع عصمت الحزن والأسى قائلًا: «يا للحسرة، أتعلمين يا.....».

قالت: «أم مجدي».

تابع حديثه: «أتعلمين يا أم مجدي، أنا مسعود أبو السعود أبو السعد مسعود وهذا ابن خالتي كريم عبد الكريم أبو المكارم مكرم زبونا عم جابر وكان له نقود لدينا، سألنا عن الرجل فعرفنا خبر اختفائه، فقلنا لا بد أن امرأته تحتاج النقود، ونريد إرجاع الحق لأصحابه».

بفضولٍ سخيفٍ سألت أم مجدي عن المبلغ المالي الذي نحمله قبل أن ينهرها عصمت محذرًا إياها من أن هذه النقود إن لم تُرد فستكون مُعلّقة في رقبتها إلى يوم القيامة.



بعد استطراد لا فائدة منه ولا طائل، بدأت أم مجدي تقصّ لنا ما حدث لزوجة عم جابر: «صلوا على النبي...».

***

بعد أن اختفى جابر دون أثر يدل على مكانه، بحثت زوجته عنه في كل مكان في المرسى في السوق، في المدينة، سألت كل زبائنه الذين استطاعت الوصول إليهم، لا أثر. ولأن علاقة جابر بالجميع كانت طيبة، فما ردّها أحد إذا طلبت منه العون ساعدها الجميع في البحث ولكن دون جدوى، حتى صار الجميع يتملص منها.

ازدادت الحياة صعوبة على المرأة وابنتها، فأضحت تُعيل فتاة من دون عائل، وبدأت مُدخراتها تنفد شيئًا فشيئًا، وتمنعها عزة نفسها من طلب العون من أحد، وساءت حالة ابنتها بالتزامن مع شُحِّ الموارد فاصفر وجهها، ونحل عودها حتى صارت هيكلًا عظميًا، وجحظت عيناها وازرقت عروقها حتى كادت تخرجان تتعرق كزجاجة مياه غازية خرجت من الثلاجة، تنفث البخار كالقدر يغلي على النار، فاحتار الأطباء في حالتها، فلا مضادات حيوية ولا خافض حرارة ينفع.

ظنَّت المسكينة أن ابنتها مرضة بمرض لعينٍ وأنها ستفقد وحيدتها، لكن الأسوأ حدث...

بدأت الطفلة تتكلم بلهجةٍ غير مفهومة، قبل أن يتغيَّر صوتها وتبيض عيناها وتسير على أربع... أجزم أن روحًا شريرة مسّت الفتاة، ذهبت بها إلى شيوخ في كل القرى المجاورة، دون جديد تشرب ما تشرب فتلفظه بطنها خارجا، يصرخ صوتٌ من داخلها: اتركوها في البحر فهذا ميقات خلاصها».

فتصرخ أمها متشبثة في الفتاة، ربطتها في الجدار بطوقٍ حديدي من رقبتها، صارت تغذيها بالإبر لا بالطعام حتى لا تهلك. وظنت التعيسة أنها خسرت كل شيء، اختفى بعلها تاركا خلفه فتاة ممسوسة، وخسرت المسكينة كل شيء.



إلى أن جاءت ليلة عاصفة، انهالت الأمطار حتى صارت الحُمُر والكلاب تسبح في الشوار لا تسير، أغلق الكل بابه فلم يخرج أحد لساعاتٍ طوالٍ، إلّا امرأة عجوز تركب حصانًا عظيم حجمه، يسير بهدوء وسط الماء حتى وصل إلى عتبة بابها، رفس الحصان الباب بقدمه فخلعه، رأيتُ العجوز تنزل من فوق حصانها داخلة البيت، اختلس ت النظر فتبيّنت العجوز تربط قطعة قماش على رقبة الطفلة، ثم سقتها شربة ماء، ورفعتها وأمها على الحصان مغشيًا على كلتيهما، وعادت من حيث أتت.

وما ان خرجوا من القرية حتى أشرقت الشمس التي كانت قد اختفت لساعات، وابتلعت الأرض ماءها وخرج الصبية يلعبون مرة أخرى.

***

سألتها مُتعجبًا: «أهذا كل شيء؟».

لكنّ عصمت ضحك مستهزئًا: «بالطبع كلّا، ما كانت القصة لتكتمل بهذه النهاية الرديئة، أليس كذلك يا أم مجدي؟».

ضحكت أم مجدي واستكملت حديثها: «بلى، هذه العجوز تكبرني ربما بخمسين سنة، عرفت للتو أنها حماتها جدة الطفلة».

قُلت بمزيجٍ غير منطقي من الفرحة واليأس: «دلينا عليها بارك الله في عمرك يا أم مجدي».

ودلّتنا أم مجدي على العنوان وأدركنا أننا على أعتاب محطتنا الأخيرة، أو على الأقل هذا ما تمنيناه.

***



مرت ساعات طوال حتى وصلنا إلى مسكن أم جابر، حاولت النوم مصارعًا أفكارًا عديدةً استباحت رأسي، أيقظت عصمت لأخبره أننا بلغنا مقصدنا.

ترجلنا من السيارة وأكملنا ما تبقى على أقدامنا لم يخيب البيت ظنوننا هذه المرة، ربما يعد هذا أقدم بيت رأيته في حياتي، ربما أقدم من بيت أسوان الذي قضينا فيه بعضًا من الليل.

بيت من ثلاثة طوابق مخلوع بابه الحديدي، متساقطة دهاناته العتيقة، مكسرة درجات السلم لا يدل شيء على وجود حياة هنا إلا حبل الغسيل المشغول في الطابق الثاني.

سبقني عصمت بجرأةٍ سيندم عليها لاحقًا، راوغنا درجات السلم المهشَّمة بصعوبةٍ، كان الطابق الأول مهجورًا إلا من الجرذان والصراصير وبيوت العنكبوت.

صعدت الدرج من خلف عصمت للطابق الثاني، إحدى الشقتين كانت هي غايتنا ودرة تاج الحقيقة ثلاثة أحذية نسائية استقرت على عتبة الباب تيقّنا من وجودهم أننا في المكان الصحيح.

ألقي عصمت نظرةً خاطفةً على السلم الصاعد للطابق الثالث لا بيل للصعود من قطع الأثاث المهترئة التي تسد السلم إذا فقد وصلنا.

وقفنا لثوان يطالع أحدنا الأخر منتظرين أن يأخذ القرار أحدنا. أين ذهبت جرأتك يا عصمت، ومن قبل أن يرفع أحدنا قبضته، فُتِح الباب من تلقاء نفسه ببطء حتى رأينا داخل الشقة.

طرقة مظلمة طويلة بنهايتها باب عتيق لغرفةٍ ترى من الزجاج لونًا أحمرًا متوهجًا وكأن ألسنة لهب تتطاير بداخلها.



ولجنا كتفًا بكتفٍ في اللحظة ذاتها أنغلق الباب بعنف حتى كاد قلبي يخطئ عد نبضاته، شعرنا البيت يهتز؛ فكان صوت بلع عصت لريقه شارحًا لما نمر به.

التفتنا لنجد أمامنا طفلة صغيرة بضفيرتين على كتفيها تشير إلى باب الغرفة الحمراء: «تنتظركما جدتي في غرفتها، تقول إنكما تأخرتما عن الموعد».

سألها عصمت بذكاءٍ يُحسَد عليه : « ومن تكون جدتك؟».

التصق مرفقي بكليته حتى ارتفع صوت صراخه، وأنا أقول: من برأيك ستكون جدتها؟ عفاف شعيب مثلًا!».

أشـار عص عصمت بعدما انتهى من التألُم إلى حيث كانت الطفلة وهو يقول: «يحيى! أين اختفت الطفلة؟».

طالعت باب الغرفة فوجدته قد فُتِح قليلًا، يبدو أن الطفلة قد دلفت الباب، تبعناها إلى الباب بخطوات مرتعدةٍ كأن أقدامنا تأبى المضي قدمًا. سمعنا صوت شيء ينكسر من خلفنا، نظرنا إلى الوراء لنجد أحد الصور العائلية قد سقطت من على الجدار تاركة حولها حطاما زجاجيًا، التفتنا لطريقنا مرة أخرى فصعقنا. كانت تقف أمامنا مُبتسِمة!

عجوز تخطت المائة عام بما يزيد عن عقدين، لا أسنان لها غائرة عيناها بين تجاعيد وجهها، منحنية الظهر بالكاد ترتكز على عكازها، اقتربت منا ببطءٍ، تتعالى أصوات أنفاسها وكأنها مثقاب، تمرر ما يظهر من عينيها في وجوهنا بغل وكراهية حتى كدت أشعر بوخز إبر في جسدي، قبل أن ترفع يسراها وتهبط بها على صدورنا!

شعرت وكأن طوربيد أصابنا فالتصقنا بباب الشقة، شعرت وكأن عظامي قد تحطمت، وأظن شعر عصمت الشيء ذاته.



قمنا كمن قام من بعد تعرضه لحادث سيرٍ سنصل للغرفة الحمراء هذه وسنعرف لماذا نرى كل هذا!

واصلنا المسير حتى بلغنا منتصف الطرقة، وقع أقدام كلاب راكضة تنبح من خلفنا مقتربة لكي تنهش لحومنا جعلنا ننظر للخلف، لم نجد شيئًا، عاودنا النظر إلى الأمام فوجدنا العجوز تنزل علينا براحة يسراها لتعيدنا إلى أول الممر مرة أخرى، تحطمت نظارات ،عصمت، وشعرت أن صدري انطبق على رئتيّ. وقف عصمت على ثلاث مراحل ثم ساعدني على النهوض: «إذا نظرت خلفك مرة أخرة سأقضي عليك، لنتابع».

عاودنا السير مرة أخرى، اقتربنا حتى صار بيننا وبين الباب خطوات معدودات نادانا صوت نعرفه من خلفنا: «تأخرت في المجيء يا أستاذ محمد، لم ننته من حسابنا القديم».

كان صوت جابر ابن الغجرية اهتز جسد عصمت وهمَّ بالنظر للخلف لكني هدأته: «يا رجل ما هذه إلا ألاعيب تمارسها الغجرية علينا لتفزعنا».

اقتنع بما قُلت لم نلتفت هذه المرة، نادانا صوت آخر من خلفنا تركتني أغرق يا صديقي، تركتني ألاقي مصيرًا لا أستحقه».

بالطبع، تمارس الغجرية أقسى أنواع العذاب النفسي على كلينا، وقف عصمت مكانه أتفهم ما يشعر به، بدأت الدموع تتقاطر من عينيه حتى لامست الأرض الخشبية المتآكلة همس بحُزنٍ: آسف يا علاء آسف لأنني ما استطعت فعل شيء».

حاولت تهدئة عصمت قليلًا، هذا ليس بعلاء وما كان ذاك بعم جابر، تمالك نفسك يا صديقي فنحن على أعتاب الوصول، جرَّ عصمت قدماه وهو يحاول مواراة دمعاته، صرخ صوت شيطاني أذكره تمام الذكرى: «لن تخرجا من هنا أحياءً».



صرخ عصمت وهو يستجمع العزم كسيارة النقل التي تتحرك من الثبات: «سنخرج من ها هنا أحياء يا كلب الغجرية».

بثلاث خطوات واسعة كأبطال سباق الحواجز وصل عصمت وأنا من خلفه للباب، فقفز عليه قفزة ففتحه عن آخره.

***

كانت تنظرنا، عجوز جالسة في غرفة يرسم الدم على حوائطها مئات الطلاسم والرموز والتعاويذ، تجلس أمام موقد تعلو فيه النار حتى تكاد تصل إلى السقف، تلقي بأشياءٍ في النار فتتوهج وتقول كلامًا يستعصي عليَّ فهمه.

قال عصمت بثبات يحسد عليه: «كفاكِ عبثًا يا غجرية، ماذا تريدين منّا؟».

تجاهلته واستمرت بما تفعل قال عصمت ساخرًا: «أيتها العجوز البائدة، كم أنتِ مثيرة للشفقة بحق نعلم كما تعلمين أنك استخدمت كل ألاعيبكِ، فعلت كل ما تستطيعين حتى نفدت منكِ الألاعيب، أخبرينا ماذا تريدين منّا؟».

نظرت له بحنقٍ وهي تلقي بما تلقي في النار صارخةً: «حق الولد».

قلت لها: «أي ولد هذا يا امرأة؟ ولدك دجال باع نفسه للشيطان، افتدى ابنته بعشرات الأبرياء، قتل من الناس ما قتل، وما زلتِ تسألين عن حقه أيّ حق هذا؟ الأحرى أن نسألك نحن عن حق عائلة الطحان، عن حق علاء والبقية، يا إلهي مع من أتحدث، كومة من اللحم المقدد من عمر أبي الهول».

كرَّرت كلماتها دون أن تأبه بإهاناتى لها، حاوَل عصمت لعب دور حمامة السلام قائلًا: «يا أم جابر، هذا لم يكن ابنك، ما واجهناه كان شيطانًا».



صرخت فيه «لست بقادرةٍ على مواجهتهم، لكنني قادرة على مواجهتكما، ولذلك ... أنتما مسئولان أمامي عن دم جابر، واللعنة طالتكما شئتما أم أبيتما».

وألقت من يدها ما تبقى فارتفعت النار وانتشر الدخان.

تحرّك عصمت يمينًا ويسارًا ضاربًا كفًّا بكفٍّ قائلًا: «أي لعنة؟ لقد مررنا بما هو أقسى من الموت وعبرناه، وها نحن ذا نقف أمامك دون أي أذى اسمعي يا من لا أصل لكِ ولا نسب».

خرج الدخان من النار فاخترق عصمت من كل فتحات وجهه حتى اسودَّ وجهه تمامًا، قط على الأرض وظلَّ يسعل حتى اختفى صوته، وطمست عروقه بعد ان اسودت، ولم يعد يظهر من عينيه شيئًا!

نظرت لها بخوفٍ، فابتسمت بثقةٍ وهي تقول: «لا تخف على صديقك، سيكون بخير؛ إن استعطت إعادة جابر إليّ».

ما بال هذه المجنونة، وكيف لي أن أعيده بعدما باع نفسه للشيطان، صرخت فيها بينما اتكئ على جسد عصمت الذي صار مثل الصخرة المتحجرة: «أنتِ الدجالة هنا لا أنا، كيف لي أن أفعل ما لم تستطيعي فعله!».

قالت: «إذا سأفرق بينكما كما فرقتما بيني وبين ولدي... إما أنت وإما هو سآخذ أحدكما لنفسي بدلا من جابر».

اعتدلت واقفًا، نظرت لعصمت على الأرض، اتخذت قراري بالفعل، وداعا يا صديقي، هذا خطؤك من البداية، هذا ذنب علاء الذي تركتموه يموت، أرسلت له قبلة الوداع بالهواء وهرعت خارج الغرفة، لكن امرأة أخرى اعترضتني.

كانت سمراء، طويلة القامة، ترتدي زيًّا بسيطًا ترتديه نساء القرى عادة.



أخرجت من عباءتها سكينًا وضعتها على رقبتي مشيرةً إليَّ بالرجوع، صرخت في العجوز بحرقةٍ: «هل ستتركيه يرحل بهذه البساطة؟ وهو على قيد الحياة؟».

ردَّت العجوز مشيرة إلى عصمت الذي توقفت أنفاسه، وازرقَّ وجهه، وكادت عروقه تنفجِر: «لا يهم، لقد أخذنا هذا مكانه».

حاولت التخلُّص من السكين على عنقي، بينما صرخت زوجة جابر: «ستتركينه يرحل حيًا بعدما قتل ابنك».

حاولت توضيح أنني لم أقتل أحدا لكن السكين كانت أكثر مني قوة في الإقناع، التزمت الصمت، بينما قالت زوجة عم جابر بسُخريةٍ: «يبدو أنك كبرت وخارت قواك يا غجرية».

نهرتها أم جابر بشدةٍ «صه يا ابنة بائعة اللبن، إياك أن تنطقي بكلمة واحدة وإلا...».

«وإلا ماذا يا غجرية لولاكِ لما ضاع مني زوجي، لولا الدنس الذي تمارسيه ما مات زوجي».

لم تكمل الجملة حتى أبعدت السكين من عنقي لتستقر بها في رقبة أم جابر!

انطلقت الدماء متسابقة من رقبتها لتخر العجوز أرضًا ملقية بآخر ما تبقى من يدها بالنار، وهي تسقُط أرضًا تصدر خوارًا كالذبيحة، علت السنة اللهب ملتهمة ثوب زوجة جابر، كنت في هذه اللحظة أجر . عصمت جرًا من قدميه حتى وصلت به عند باب الشقة.

تعالت صرخات النسوة بالداخل بدأ عصمت يسعل مرة أخرى وعاد وجهه لسابق لونه، كمن كان غارقًا وأنقذ، شرع يتنفس ثم همَّ بالخروج.



ثوان قليلة كانت كافية كي نخرج من المبنى بأكمله. دوّى صوت انفجار جعل من الطابق بالكامل لهيبا، تطايرت النيران ومازال صوت النسوة مسموعا في الأفق، كُنا نعرف ما يجب علينا فعله سنتصل بالنجدة وشرطة الإطفاء، سنحكي ما حدث وننشره، وقع عصمت على الأرض ضاحكًا.

من كان يصدق أن قصتنا تنتهي بهه النهاية السعيدة، جلست على الرصيف إلى جواره نطالع الدخان، تعلو أصوات ضحكات هيستيرية تشكل مع صرخات المرأتين سيمفونية أطربت آذاننا سألني عصمت: «هل انتهى كل شيء حقًّا؟».

لم أُجِبه، وقف أمامي وكرّر السؤال، لكنني لم أكُن أسمعه حقًّا، كنت أميل للنظر إلى البيت الذي تلتهمه النيران، بل لأكون أكثر دقة، كنت أطالع الشرفة!

لاحظ عصمت ذلك فنظر خلفه باتجاه البيت.

وفي الشُرفة، وسط ألسنة اللهب العالية، كانت تقف، وضعت يدها على عنقها وأشارت لنا بإشارة الذبح.

من هي؟

كوكو!

كوكو بنت عم جابر التي سمي على اسمها مركب عم جابر).

يبدو أن قصتنا لم تنتهِ بعد!




تم بحمد الله


سما